الفصل الثامن

ليبيا وتجارة الرقيق

الفصل الثامن

ليبيا وتجارة الرقيق

- الرّقيق عبر القرون وفي نظر الأديان السماويّة
- تطوّر عمليّات إلغاء الرقّ
- قضيّة الرّق في ليبيا
- هجرة أولاد سليمان و تأثيرهم في حياة تشاد

الفصل الثامن

ليبيا وتجارة الرقيق

الرّقيق عبر القرون وفي نظر الأديان السماويّة

الرّقيق لغويا مشتقّ من رقّ فهو رقيق ضد الغليظ الثخين، وتعني الهيّن الضعيف. والرّقّ هو المُلك والعبوديّة. وفي الإصطلاح العربي ورد قول أبي العبّاس: " سُمِّي العبيد رقيقا لأنّهم يرقون لمالكهم ويذلّون ويَخضعون ".

وقد تطوّر الرّقّ مع تطوّر المجتمع البشري في مراحله المتتالية، ففي عصر الصيد كما قال**Dunoyer** لا يقوم المحارب المتوحّش باستعباد عدوّه الذي ينتصر عليه، بل يقتله للتخلص منه ويتّخذ من نساء القبيلة المغلوبة زوجات وخادمات له. وعندما جاء العصر الرّعوي كان الأسرى يُباعون ما عدا القليل منهم الذين يُستبقون لجني ثمار الحقول. وفي عصر الزراعة المستقرّة مورست العبوديّة على نطاق أوسع، وأضحت وسيلة لإنتاج الغذاء للسيّد وإغنائه عن حياة الكدح بنفسه لتوفير لقمة العيش له ولعائلته. وفي تلك المرحلة من تطوّر الحياة البشريّة صارت العبوديّة سلوكا عالميّا لصيقا بالإنسان. وحتى الحضارات القديمة استغلّت هذا الوضع، ففي الحضارة **السومريّة** في النصف الأوّل من الألف الثالث قبل الميلاد، كانت مؤسّسة الرقّ منظّمة بموجب قانون حامورابي ملك بابل **(١٩١٣ – ١٩٥٥)** قبل الميلاد، **وأشور** جنّدت العبيد في حروبها ضدّ بابل والممالك المصريّة القديمة والفارسيّة، ثمّ تلاهم العبرانيّون في ممارسة الرّقّ. وفي مصر **الفرعونيّة** تواجد الرقّ بشكل ضئيل إذ لم تنشأ الحاجة الماسّة اليه بحكم توفر الفلاحين المطيعين ذوي الأجور الرخيصة، واقتصر استخدامهم في العهد البطليموسي في بيوت الأغنياء كخدم. أمّا الحضارة **الإغريقيّة** فلم تُلغ الرّقّ رغم مبادئها المنادية بالحريّة والديمقراطيّة. وفي القرن الخامس قبل الميلاد – مع نشوء طبقة أثرياء وجدوا ربحا في هذه التجارة خاصّة في جزيرة Khios أي (خانية) التابعة لكريت قبالة الساحل الشرقي لليبيا. وفي جزيرة (أتيكا)،بلغ العبيد فيها سنة ٤٣٠ قبل الميلاد مائة وخمسة عشر عبدا من مجموع عدد سكانها البالغ الثلاثمائة وخمس عشرة نسمة. وعند الرومان كانت تجارة الرقيق مزدهرة في القرنين الأوّل والثاني قبل الميلاد. وكانت جيوشهم في شرقي البحر الأبيض تتّخذ من

جزيرة (ديلوس) سوقا يُشترى فيها الرّقيق السّوريّون واليهود والإغريق والمصريّون ليُباعوا في روما. وفي العصر الحديث وبزوغ الآلة والصناعة،جاء أوسكار وايلد (١٨٥٤ – ١٩٠٠) - وكان إشتراكيّا فوضويّا وطوباويّا - ليقول: " من المحقق أن المدنيّة كانت تتطلب وجود الرّقيق. والإغريق كانوا صائبين هنا، فلو لم يكن هناك رقيق يقوممون بالأعمال البشعة والرهيبة والهامشيّة، لاستحالت الثقافة والتأمّل الروحاني. والآن يعتمد مستقبل العالم على العبوديّة الميكانيكيّة، أي العبوديّة للآلة ".

ولعلّ من أطرف التعليلات التي ساقها بعض المحللين الغربيين، القول بأن ظاهرة الرّقّ لدى الإغريق والرّومان القدامى نشأت كوسيلة من وسائل التخلّص من عادة كانت متبعة وهي: تعريض الأطفال الرّضّع لعوامل الطبيعة في العراء حتى يموتوا تخلّصا منهم، لأسباب عديدة أهمّها الفقر وضغط الحاجة. ولذا كان هؤلاء الأطفال يُنقذون أحيانا من قبل التجّار الذين يعثرون عليهم فيقومون ببيعهم كعبيد. ولكن أليست عمليّة بيع الأطفال هي تجارة الرّقّ في حقيقتها، حتى لو كانت لإنقاذهم من الموت ؟.

أمّا عمليّة عتق العبيد في هذه الحضارات القديمة فقد اتخذت أساليب وأشكالا عدّة: ففي الثقافة **البابليّة** يصبح الرقيق حرّا إمّا بالعتق الرسمي أو بالتبنّي أو بأن يشتري نفسه. وفي أثينا كانت الدولة تستخدم الرقيق كإداريين ورجال شرطة يتقاضون أجورا يوميّة. وكانوا يطمحون إلى التحرّر بقرار رسمي. وفي العهد الذهبي للسياسي الحصيف بيريكلس **Pericels** (٤٢٩ - ٤٩٥ قبل الميلاد) الذي قاد أثينا نحو الحكم الديمقراطي الدستوري، فقد كثر الرقّ واتّسع عتقه. ولعله من المفيد أن نذكر هنا قول أرسطو (٣٢٢ – ٣٨٤) " كلّ قادر على أن يكون تابعا للآخر هو عبدٌ بالطّبيعة "، أي أنه كان يرى الرّق ضروريّا وطبيعيّا. وهو قول يصوّر بجلاء شروط ذلك المجتمع الموضوعيّة وعلاقات القوى بين أفراده، بينما كان إفلاطون يشجبه، والرّواقيّون كانوا يعتبرون الحريّة والرقّ عرضا خارجيّا غير مهم من وجهة نظر الحكمة. وقالوا: " من غيرالمعقول أن يُنظر إلى الحريّة على أنها مصدر للفخر، وإلى العبوديّة على أنها موضوع للتذمّر ". وفي ثقافة **الرومان**، للسيّد أن يعتق عبده، ولكنّ في حالات نادرة وبإجراءات شكليّة معقدة، وإذا ما عتقه جاز له أن يُعيد استرقاقه متى شاء. وفي العصر الإمبراطوري اتسع العتق وأخذ السّادة يتباهون به. وفي آخر مرحلة من تطوّر الرقيق العتيق تحوّل من شكله التقليدي إلى رقّ الأرض **Serfdom** أو**Servage**، أي القنانة. وهو عمل الرقيق في الأرض لقاء جزء من المحصول الذي لا يحقّ أن يُنتزع منه. وكان ذلك دافعا للأقنان لكي يضاعفوا من بذل

الجهد لزيادة الإنتاج. وهكذا أجيز لهم بناء بيوتهم على الأرض الممنوحة، فأنجبوا أولادا ينتسبون إليهم ممّا أكسبهم شخصيّة قانونيّة، كما استردّوا شيئا من كرامتهم الإنسانيّة. لكنهم ظلّوا رغم ذلك ملتزمين بالخضوع لأسيادهم في كلّ ما يأمرونهم به، فلا يزرعون الأرض التي مُنحت لهم إلاّ بإذنهم، ولا يتزوّجون إلاّ بإجازة منهم ومن نساء رقيق إقطاعيّاتهم، ولا يستطيعون هجر الأرض أو مغادرة الإقطاعيّة. ويرث أولاد السيّد رقيقه من بعده لأنهم أرقاء أرض يولدون ويموتون عليها، فكانوا يُباعون هم وأسرهم مع الأرض. ويحدث أن يلجأ العبيد المستضعفون إلى سيّد إقطاعي قويّ يحميهم، وأن ينقلب مدينون لسيّد إقطاعي عجزوا عن الوفاء بديونهم، إلى أرقاء له. ومنهم من أصبح رقيقا للإقطاعيّات الكنسيّة، وآخرون يدخلون طواعيّة في رقها طمعا في الثواب. وقد انتشر هذا النوع من السخرة في روسيا القيصريّة في القرن الثامن عشر للميلاد، وفي عصر الإمبراطورة كاترين الثانية. ولكن في عهد الإمبراطور باول الأوّل الذي حكم من ١٧٩٦ - ١٨٠١ عمل على الإصلاح من أوضاعهم. وفي عهد الإسكندر الثاني كوّن عام ١٨٥٥ لجنة سريّة لوضع مخطّط نتج عنه قانون يلغي السخرة بحلول عام ١٨٦١، وإذ ذاك كان عدد الخاضعين لنظام السخرة ٢١ مليونا إضافة إلى نصف مليون منهم كانت تمتلكهم الدولة. وفي النهاية بلغ عدد المحرّرين منهم أكثر من أربعين مليونا.

وفي الأديان التوحيديّة الثلاثة تفاوتت مواقفها من الرّقّ، حسب كتبها المقدّسة: ففي **اليهوديّة** ذُكر الرّقّ في **التوراة (العهد القديم)** لأوّل مرّة في سفر التكوين ٩:٢٠:٢٧ أثناء رواية قصّة سيّدنا نوح الذي كان مخمورا فنام في خيمته عاريا، وحينما دخل عليه (هام) أحد أبنائه استيقظ ولعنه قائلا له: إن نسله سيكونون عبيدا لنسل إخوته. وفي السفر ٢٥: ٤٤ – ٤٦ ورد القول " إن ذكرك وأنثاك هما عبدان سيأتيان من الأوطان المجاورة حواليك؛ ومن بينهم يمكنك شراء العبيد. ويمكنك أيضا شراء العبيد من المقيمين بينكم مؤقتا وكذلك أعضاء عشيرتهم الذين وُلدوا في بلادكم، فهم سيكونون من أملاكك، وتستطيع أن تورثهم لأبنائك كتركة وأن تجعلهم عبيدا طول الحياة. ولكن يجب ألا تتحكم في إخوتك الإسرائيليين بقسوة. " ومن هنا يتّضح، أنه بينما كان الإسترقاق نظاما متّبعا في الشرق الأدنى الغابر، مُنع الإسرائيليّون بصفة خاصّة من أن يتّخذوا من مواطنيهم عبيدا دائمين. وفي (سفر الخروج) ٢١ ثمّة أحكام بإمكانيّة تحرير العبيد في نطاق محدود مع حماية قليلة ضدّ سوء معاملتهم. والتوراة عبّرت نوعا ما عن القلق تجاه راحة العبيد الأجانب الذين يعيشون في إسرائيل.

وفي **المسيحيّة** فقد ورد في **الإنجيل (العهد الجديد)** عدّة رسائل تشيد فيها بقيمة العبد والحُرّ عند المسيح عليه السلام، مثلما جاء في رسالة بولس الرسول ٣:٣٨ من أنه لم يعد هناك يهوديّ أو مسيحيّ أو يونانيّ، ولم يعد هناك عبد أو حُرّ، ولم يعد هناك ذكرٌ أو أنثى؛ لأنكم جميعا واحد في المسيح عيسى. ولكن هذا لم يكن حثا على تحريم الرّقّ أو إلغائه، فمثلا وفي عام ١٤٨٨. أرسل ملك أسبانيا فيرديناند إلى البابا (أينوشينتي الثامن) مائة جارية من مسلمي الأندلس جرى أسرهنّ بعد سقوطها، فقام كبير الكرادلة بتوزيعهنّ على أساقفة الكنائس. على الرّغم من أنّه وردت عدّة رسائل إنجيليّة وعظيّة مثل: أيّها العبيد أطيعوا سادتكم في الأرض بخشية وارتجاف و: يا أيّها العبيد أطيعوا سادتكم في الأرض في كلّ شيء وافعلوا ذلك، ليس فقط عندما يراقبونكم لتنالوا رضاهم، ولكن بإخلاص من القلب وبتبجيل للربّ. وهناك مواعظ أخرى تؤكد أن طاعة العبد وإخلاصه لسيّده وتقبّل العذاب في خدمته هي موجّهة لذات الربّ. ومن ناحية أخرى وجّه النداء للسادة المسيحيين لكي يعاملوا عبيدهم معاملة إنسانيّة. ويجادل المسيحيّون اليوم أن القدّيسين بولس وبطرس لم يدافعا أو يدينا الرّقّ، ولكنهما بكلّ بساطة اعترفا به كممارسة كانت متبعة على نطاق واسع في الإمبراطوريّة الرّومانيّة. مشيرين الى أن القدّيس بولس لم يكن مُصلحا اجتماعيّا، ولكنه رسول.

وفي **الإسلام** فعلى الرّغم من أن المؤرّخين الغربيّين حاولوا أن يعتبروا الإسلام – مثل اليهوديّة والمسيحيّة قبله – قد غضّ النظر عن ممارسة الرّقّ، بل وشجّع على تعاطيه، إلا أن الفقهاء المسلمين أنكروا ذلك مؤكدين أن الدين الإسلامي اعتبره مكروها وأمر بتجنبه وشجّع، على العكس من ذلك، على تحرير العبيد. واستشهدوا في ذلك بآيات من **القرآن والأحاديث النبويّة**، كما ورد في السّورة ٤: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ النساء: ٣٦ - ذهب كبار الرّواة للأحاديث والمفسّرين إلى أنها وصيّة بالأرقاء " لأن الرّقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي النّاس، ولهذا ثبت أن النبيّ جعل يوصي أمّته في مرض الموت يقول: الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم. فجعل يردّدها حتىّ ما يفيض بها لسانه " – أي أن آخر ما نطق به قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة (ﷺ) - هي وصيّته بإقامة الصلاة والرّفق بالعبيد - وروى أبو ذرّ عن النبيّ قوله عن الأرقاء " هم إخوانكم حولكم

وجعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل ويُلبسه ممّا يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم. " كما أشاروا الى قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ﴾ النساء: ٩٢ أنه لإتيان الكفارة ينبغي "فكّ عبد من أسر العُبوديّة وذلّها، وأصل التحرير الفكّ من الأسر "، وكذلك ما ورد في الآية قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ النور: ٣٣ والمراد هنا الأمر بأن يورث السيّد عبده شيئا من ماله إن توسّم فيه خيرا. ويستدلّ الفقهاء المسلمون بالآية قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات: ١٣ لتقرير السّواسيّة بين جميع النّاس. وثمّة سور أخرى بها آيات تتحدّث عن حُسن معاملة الرّقيق، وقصص في سيرة الرسول بنفس المعنى.

ويأتي النقاد الغربيّون بعد كلّ ما مرّ ذكره من آيات بيّنات وأحاديث نبويّة مجمع عليها من كبار الرّواة، ليتساءلوا: إذا كان النّبيّ معارضا للرّقّ فلماذا إقتنى عبيدا أساسا؟ واستدلّوا على ذلك بما رواه البخاري عن عروة بن الزّبير من قيام السيّدة عائشة بعتق أربعين عبدا للتكفير عن حنثها لليمين، ليقولوا من أين جاء هؤلاء العبيد إذن ؟ ألم يكونوا قبل ذلك أحرارا ثمّ وقعوا أسرى في أيدي المسلمين فتحوّلوا إلى عبيد ؟ ثمّ قصّوا ما حدث لأسرى بني قريضة وماجرى لهم على يدي سعد حارس النبّي. وهم في هذا النقد تناسوا أن الفقهاء المسلمين لم يُنكروا وجود الرّقّ في الإسلام، مثلما لم تنكره اليهوديّة والمسيحيّة قبله، وإنما كانوا يبرهنون على الرّفق بهم وعتقهم ضمن عمليّة التدرّج المرحلي الذي كان يستهدف التوقف عنه، أو وضع العراقيل المانعة لحدوثه، وهو ما سيأتي ذكره. كما أن النقاد الغربيين تجاهلوا أن الرقّ في الإسلام لم يحدث إلا أثناء الحروب. وردّا على ما رواه مسلم عن إمكانيّة إعتاق العبيد والقبول بزواجهم وإنجابهم للأولاد وسعيهم لكسب الزق وجمع المال.. إلخ، أشاروا إلى أن ذلك كان معمولا به حتى قبل الإسلام، ليستطردوا الى القول إنه لا معنى لاقتناء العبيد، ثمّ العمل على تحسين أوضاعهم ! وهذه لجاجة لأنها محاولة لإسقاط المفاهيم والرؤى الحاضرة على قضايا انطوت في عصور قديمة.

والخلاصة أنه وبمرور الزّمن ترتب على ممارسة الرّق في الإسلام والتدرّج في إلغائه، أن أصبحت له مؤسّسة ذات أعراف وتقاليد تختلف قليلا بين المذاهب الأربعة: المالكيّة والشّافعية والحنبليّة والحنفيّة عند السّنة. وكانت هذه المنظومة تتراوح ما بين (العِتق) و (الولاء). والعِتق كان هو الهدف تأسّيا بقول النّبي: إن من عتق عبدا نجا من نار جهنّم. وعلى هذه القاعدة انتظمت معاملة الرّقيق، طبقا لصفاتهم وظروفهم، (فأمّ ولد) أيّ الجارية تُعتق بمجرّد وفاة سيّدها، وبالتّبعيّة يعتق بقيّة عبيد أقرباء المتوفى. وفي المذهبين المالكي والحنفي إذا ما قال أحد الملاّك لعبده: " إنك تصبح حرّا عندما أموت " سُمّي ذلك (تدبيرا) والمعتوق (مُدبَّرا). ولا يمكن لهذا المالك أن يُلغي (التدبير) ويستردّ عبوديّته بعد هذا الإعلان. بينما في المذهب الشّافعي يسري على العبد ما يسري في وصيّة الإرث: أي إمكانيّة إسترجاعه أو بيعه للغير. كما جازللعبد أن يشتري حريّته من سيّده بدفع ما يُتفق عليه، وتُسمّى الصفقة (مكاتبة) - وهو ما ورد في القرآن الكريم في الآية قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ النور: ٣٣ وهناك ما سُمّي " بأم الولد " وهي العبدة التي تُنجب طفلا لسيّدها، وفي حالة وفاة السيّد تُصبح حرّة، وعلى هذا لايجوز بيعها أو رهنها. وإذا كان أحد العبيد مملوكا لعدّة أشخاص - ويُسمّى (بالمبعّض) - جاز لأحدهم أن يحرّره مقابل دفع أنصبة الآخرين. أي أنه، في جميع الحالات، من المستحبّ العمل على تحرير الرّقيق والتّخفيف من الإجراءات بما في ذلك تخفيض الثّمن، بل واستخدام (الزّكاة) في ذلك. امّا (القِنّ) حسب هذه المنظومة فهو الذي ليس (مُكاتبا) ولا (مُدبَّرا) ولا (أمّ ولد) أو (مبعّضا). وثمّة العديد من التنظيمات الأخرى المتعلقة بالإرث والولاء والتزاوج بين السّادة والأرقاء لا يسمح المجال بالتطرّق إليها.

وكما سبق القول فالحالة الوحيدة للإسترقاق حسب القرآن والشريعة الإسلاميّة هي حالة أسرى حروب (الجهاد)، وفي هذا جاء في الآية قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الأنفال: ٦٧ ثمّ جاء تخيير النّبيّ بين المنّ وبين الفداء في سورة محمّد: " **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرّقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّا بعدُ وإمّا فداء حتى تضع الحرب أوزارها** "، وقد ذهب بعض العلماء إلى القول إنه بنصّ هذه الآية لا يجوز استرقاق أسرى الحرب، حيث الآية خيّرت النّبيّ بين المنّ وبين الفداء، ولم تذكر الإسترقاق. غير أن علماء آخرين يرون أن هذه الآية نُسخت بقوله قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ التوبة: ٥ - ٦. وهو ما فسّره الإمام الشّافعي بقوله: إن الآية تخيّر بين قتله أو المنّ عليه أو مفاداته أو إسترقاقه. وفي السّيرة أن النّبيّ في غزوة خيبر وقعت في أسره صفيّة بنت أخطب، وهي يهوديّة من بني النّضير، فأعتقها فأسلمت ثمّ تزوّجها.

وينبغي التّذكير هنا أنه حدثت في التاريخ الإسلامي إحدى أكبر ثورات الرّقيق الجماعيّة، بالمعنى الطّبقي للكلمة ونعني بها ثورة الزّنج عام ٨٦٨ ميلاديّة في عهد الخليفة العبّاسي المعتمد والتي قادها علي بن محمّد، وبدأت في البحرين سنة ٨٦٣ م، وهي التي اشتهرت باسم (ثورة الزّنج). ونظرا إلى أهميّة هذه الثورة ونُدرة ما كُتب عنها، نرى من الضروري إعطاء نبذة كافية عنها كما يلي، حسب إجماع المؤرّخين العرب حولها وخاصّة ما أوردته عنها الموسوعة الإسلاميّة :

" كان قائد هذه الثورة هو علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان شاعراً وعالماً يمارس في (سامراء) تعليم الخطّ والنحو وعلم الفلك. وكان واحداً من المقرّبين الى الخليفة المنتصر بالله . ولما قتل الأتراك المنتصر بالسمّ، ومارسوا السّجن والنفي والإعتقال والإضطهاد لحاشيته، كان علي بن محمد ضمن المعتقلين. ثم حدث تمرّد من فرقة " الجند الشاكرية " ببغداد، شارك فيه العامّة، واقتحم المتمرّدون السّجون فأطلقوا سراح من فيها، ومنهم علي بن محمد، الذي غادر بغداد إلى " سامراء " ومنها إلى البحرين، حيث دعا الى الثورة ضدّ الدولة العباسيّة الواقعة تحت سيطرة الجند الأتراك. وقد اشتهرت " بثورة الزنج " نسبة الى جزيرة زنجبار في شرقي أفريقيا (تتبع تنزانيا الآن) التي جُلب منها العبيد للعمل. الا أنها لم تكن ثورة عنصريّة للزنج وحدهم، فلم تقف أهدافها عند المطالبة بتحرير العبيد أو تحسين ظروف عملهم، فقائد هذه الثورة عربيّ علويّ، رغم تشكيك خصومه في صحّة نسبه العلوي [1]. وأغلب قوّادها كانوا عرباً كذلك، مثل: علي بن أبان (المهلبي)، وسليمان بن موسى الشعراوني، وسليمان بن جامع، وأحمد بن مهدي الجبائي، ويحيى بن محمد البحراني، ومحمد بن سمعان.. الخ. وعلى امتداد السنوات الأولى من عمر هذه الثورة

١ منذ عهد المتوكل العبّاسي ٨٤٧ – ٨٦١ قامت عدّة ثورات ضدّ سيطرة الجند الأتراك على مقاليد الأمور الحقيقيّة. وكان أغلب الثوّار من العلويّين مثل ثورة الكوفة بزعامة أبي الحسين يحي سنة ٨٦٢ وفي طبرستان بقيادة الحسين بن زيد ٨٦٤ ثمّ ثورات (الرّي) وقزوين والكوفة مرّة أخرى.وبما أن قوّاد هذه الثورات كانوا جميعا ينتسبون الى الإمام علي،فتعتبر هذه الثورة امتدادا لها.

(٨٦٢ ــ ٨٦٨) كان جمهورها وجندها ومحيطها عربيّاً خالصاً، فهي قد بدأت في مدينة " هجر "، أهم مدن البحرين، ثم في " الأحساء " بين أحياء " بني تميم " و " بني سعد "، ثم في بادية البحرين وسط عربها. وفي هذا المحيط العربي قامت سلطة هذه الثورة و " دولتها " وحدثت الحروب بينها وبين جيش الدولة العباسية. ويصف الطبري سلطة علي بن محمد في هذا المحيط العربي، فيقول: " لقد أحلّه أهل البحرين من أنفسهم محلّ النبي حتى جُبى له الخراج هناك، ونفذ حكمه بينهم، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه ! " . وفي موقعة " الردم "، بالبحرين، أحرزت الدولة انتصاراً مؤثراً ضدّ الثورة، فانسحب علي بن محمد الى البصرة، ونزل هناك بين عرب بني ضبيعة (من نزار بن معن بن عدنان). فدعاهم للثورة، فتبعوه، وكان منهم عدد من قادة دولته وجيشه. ولمّا طردته الدولة، وألقت القبض على أغلب أنصاره، ووضعتهم في السجون، مع إبنه الأكبر وإبنته وزوجته، غادر علي بن محمد البصرة الى بغداد، فأقام بها عاماً. وفي سنة ٨٦٩ حدثت بالبصرة فتنة بين طائفتين من جندها، " الجند البلالية " و " الجند السعدية "، وأسفرت هذه الفتنة فيما أسفرت عن إطلاق سراح السجناء، ومنهم أنصار علي بن محمد، فغادر بغداد ووصل الى ضواحي البصرة ليواصل ثورته من جديد. وفي هذا التاريخ بدأ أول انعطاف للثورة نحو الزّنج، في البصرة أهم المدن في جنوب العراق، التي كانت مشحونة بالرقيق والعمال الفقراء الذين يعملون في مجاري المياه ومصابها، ويقومون بكسح السباخ والأملاح الناشئين من مياه الخليج، وذلك تنقية للأرض وتطهيراً لها، كي تصبح صالحة ومعدّة للزراعة. وكانوا ينهضون بعملهم الشاق هذا في ظروف عمل قاسية وغير انسانيّة، تحت اشراف وكلاء غلاظ قساة، ولحساب ملاك الأرض من أشراف العرب ودهاقنة الفرس. وبعض هؤلاء العبيد ــ إضافة الى المجلوبين من زنجبار- كانوا نوبيين وقرماطيين، أما فقراء العرب فكانوا يُسمّون الفرّاتين. وشرع علي بن محمد يدرس حالة هؤلاء الرّقيق، ويسعى لضمّهم لثورته، كي يحرّرهم ويحارب بهم الدولة العباسية. وكان أوّل زنجي ينضمّ اليه هو ريحان بن صالح، الذي أصبح من قادة الحرب والثورة. وأخذ علي بن محمد ينتقل، مع قادة ثورته بين مواقع عمل الرّقيق والفرّاتين، ويدعوهم الى الثورة والهرب الى معسكره وترك الخضوع لسادتهم، فاستجابت لدعوته جماهير غفيرة، وانضمّوا الى العرب والأعراب الذين تبعوه من جنوبي العراق. ولقد فشل وكلاء الزنوج في الحيلولة بينهم وبين الإلتحاق بمعسكر الثائرين، فكانوا يحبسونهم في البيوت ويسدّون أبوابها ومنافذها بالطين ! ويصف إبن خلدون إقبال الزنج على الثورة، وزحفهم للقاء قائدها فيقول: " لقد تسايل اليه الزنج واتبعوه ". ولقد أعلن علي بن محمد أن هدفه، بالنسبة للزنج والعرب الفقراء، الذين يعملون في اصلاح أرض العراق الجنوبي، هو: ١- تحرير الرقيق من العبوديّة، وتحويلهم الى سادة لأنفسهم ٢- إعطاؤهم حق امتلاك الأموال والضياع، بل ومنّاهم بامتلاك سادة الأمس الذين كانوا يسترقونهم ٣- ضمان المساواة التامة لهم في ثورته ودولته التي تعمل

من أجل نظام اجتماعي هو أقرب الى النُظم الجماعيّة التي يتكافل فيها ويتضامن مجموع الأمة، ونظام سياسي يرفض الخلافة الوراثيّة لبني العبّاس،والتي أصبحت أسيرة بيد قادة الجند الأتراك، ويقدم بدلاً عنها دولة الثورة التي أصبح فيها علي إبن محمد أميرا للمؤمنين. ولقد استطاعت الثورة أن تكتسب، أكثر فأكثر، ثقة جماهير الزّنج وفقراء العرب، وخاصة بعد أن رفض قائد الثورة مطالب الأشراف العرب والدهاقين والوكلاء بأن يردّ إليهم عبيدهم لقاء خمسة دنانير يدفعونها عن كل رأس ! لقد رفض علي بن محمد هذا العرض، بل وعاقب هؤلاء السّادة والوكلاء، فطلب من كل جماعة من الزّنج أن يجلدوا سادتهم ووكلاءهم القدامى، وزاد من اطمئنان الزنج للثورة ما أعلنه قائدها من أنه " لم يثر لغرض من أغراض الدنيا، وانما غضباً لله، ولما رأى عليه الناس من الفساد ".. وعاهدهم على أن يكون في الحرب بينهم " أشرككم فيها بيدي، وأخاطر معكم فيها بنفسي " بل قال لهم: " ليحط بي جماعة منكم، فإن أحسّوا مني غدراً فتكوا بي ؟! ". وبهذه الثقة تكاثر الزنج في صفوف الثورة وفي كتائب جيشها، بل وانضمّت إليها الوحدات الزنجيّة في جيش الدولة في كل موطن التقى فيه الجيشان، حتى لقد سُميّت لذلك بثورة الزنج، واشتهرت بهذا الاسم في مصادر التاريخ. وفي عشرات المعارك التي وقعت بين الدولة العباسية وبين ثورة الزّنج، كان النصر غالباً للثورة على الدولة، وتأسّست، كثمرة لهذه الانتصارات، للثورة دولة قامت فيها سلطتها، وطبّقت بها أهدافها، ونفذ فيها سلطان علي بن محمد. ولقد بلغت درجة من القوّة فاقت بها كلّ ما عرفته الخلافة العباسيّة قبلها من إنتفاضات وثورات. والمؤرّخون الذين كانت الدنيا عندهم هي الامبراطورية العباسية قالوا: إن الزنج قد " اقتسموا الدنيا، واجتمع إليهم من الناس ما لا ينتهي العد والحصر إليه! ". وكان عمّال الدولة الثائرة يجمعون لعلي بن محمد الخراج على عادة السلطان، حتى لقد " خيف على مُلك بني العباس أن يذهب وينقرض ". ولقد أقام الثوّار لدولتهم عاصمة سمّوها المختارة أنشأوها انشاء في منطقة تتخللها فروع الأنهار، كما أنشأوا عدة مدن أخرى. وضمّت دولتهم مدناً وقرى ومناطق كثيرة مثل: البحرين والبصرة والأبلة والأهواز والقادسية وواسط وجنبلاء وباذاورد والنعمانية والمنصورة وجرجرايا وجبل ورامهرمز والمنيعة والمذار وتستر والبطيحة وخوزستان وعبادان وأغلب سواد العراق. ولقد استمرّت الحرب بين دولة الثورة هذه وبين الخلافة العباسية لأكثر من عشرين عاماً بلغ العنف فيها، من الجانبين، حدّاً لم يسبق له مثيل، حتى ليقول المؤرّخون الذين يتواضعون بأرقام القتلى في هذا الصّراع بأنهم بلغوا نصف مليون قتيل ! ولقد ألقت الخلافة العباسية بكلّ ثقلها في المعركة ضد الثورة، وكرّست كل امكاناتها للجيش والقتال. وبعد أن عهد الخليفة المعتمد (٨٧٠ ــ ٨٩٢ م)، بالقيادة إلى أخيه الموفق، تحوّل قائد الجيش إلى خليفة حقيقي، وتحوّلت المدينة التي بناها تجاه عاصمة الثوار، والتي سمّاها الموفقيّة، إلى العاصمة الحقيقية للدولة، يأتي إلى بيت مالها كل خراج البلاد، وتصدر منها

الأوامر إلى كل الولاة والعمال بأن يقدموا للجيش كل ما لديهم من امكانيات، حتى لقد حاول المعتمد الفرار من سامراء إلى مصر، فألقوا القبض عليه وأعادوه الى قصر الخلافة شبه سجين. ولقد رجحت كفة الجيش العبّاسي بما احتشد له من فرسان وسفن وعتاد، فأحرز عددا من الإنتصارات على جيش الزّنج، وبدأ حصارا لعاصمتهم استمر أربع سنوات. وكانت مصر قد استقلت عن الخلافة تحت حكم أحمد بن طولون (٨٨٠ م). وكان لها جيش قويّ بالشام يقوده لؤلؤه، غلام ابن طولون، فخان سيّده وانضمّ إلى جيش الدولة المحتشد لقتال الثوّار. وعند ذلك تمكن الموفق من اقتحام المختارة وهزيمة الثورة التي ظلت قائمة تقاوم حتى ١٠ أغسطس سنة ٨٨٣ م. فكانت أطول ثورات العصر العباسي وأخطرها. "

وإذا ما استرسلنا في تقصّي تجارة الرّقيق عبر القارّات، فسنجد أنها انتشرت أيضا في قارّة آسيا، ففي الهند كانت تتخذ عدّة أنواع أشهرها رقيق العمل، وخاصة أثناء الحكم المغولي، فكان أصحاب الأموال يقايضون ديونهم بالفلاحين والعمّال من الذين يعجزون عن دفعها. ولقد اسْغلّ أكثر من جيل كامل بهذه الطريقة، إذ قد يُجبر الصبيّ على العمل طوال حياته من أجل تسديد الدين، مع ما يصحبه من سعر الفائدة. ومن ناحية أخرى معظم الهند حُكمت من قبل ما سُمّي (أسرة العبيد) في الفترة من ١٢٠٦ - ١٢٩٠ لأن قطب الدين أيبك، وكان عبدا لمحمّد الغوري، ارتقى عرش الحكم بعد وفاة سيّده واستمرّ خلفاؤه من نسله يحكمون لقرن كامل من الزمان. وفي اليابان يعود تاريخ الرقّ إلى القرن الثالث في التاريخ الصيني، إذ سُجّل فيه تصدير عبيد من اليابان وكانوا يسمّون العبد (سايكو) وفي القرن الثامن سمّوه (نوهي). وفي عهد إمبراطوريّة سينجوكو (١٤٦٧ – ١٦١٥) أصبح الحديث عن الرّق شائعا كونه مجلبة للمفارقات، وفي لقاء أساقفة كاثوليك مع الإمبراطور (أوكا نوبوناقا) قدّموا له عبدا أسود من أفريقيا كهديّة، وهي المرّة الأولى التي يُشاهد فيها شخص أسود في اليابان. إلا أنه منذ سنة ١٥٨٨ أصدر الإمبراطور (تويوتومي هيدي يوشي) أمرا بإلغاء تجارة الرقيق، وهو ما حافظ عليه خلفاؤه. وفي المستعمرات التي ضمّتها إليها اليابان في آسيا، فاعتبارا من القرن التاسع عشر ألغت اليابان فيها المؤسّسات التي كانت تتعامل بالرّق منذ فترة طويلة. إلا أنه وأثناء حرب الباسيفيك في الفترة ما بين ١٩٣٧ – ١٩٤٥ فإن الجيش الياباني استعمل مئات الألوف من السجناء المدنيين في أعمال السخرة - وهي نوع من الإسترقاق - في مشاريع كثيرة، كمدّ خطوط سكك الحديد في بورما.

وفي حضارة البحر الأبيض المتوسّط العتيقة وكذلك في ثقافة الخلافة الإسلاميّة، كان الرّق مزيجا من العبوديّة بسبب الدّيون وبدافع الزواج، وكعقوبة على الجريمة، وكغنيمة في الحروب. وفي أوروبّا القرون الوسطى كانت هذه التجارة تُمارس علنا في أسواق المدن

الكبرى كمارسيليا ودبلين وبراغ. وكانت جميعها تتاجر فيها مع بلدان الشرق. وكان (المور) **Moors** وهو الإسم الذي كان يطلقه المؤرّخون الغربيّون على سكان المغرب، أثناء غزواتهم في القرن الثامن للميلاد على المناطق السّاحليّة المواجهة لهم فيما سُمّي بحرب القراصنة، قد نقلوا أحيانا سكان قرى بكاملها الى أسواق ما سُمّي بالسّاحل البربري. ومن ناحية أخرى أخذ السّلاطين العثمانيّون، بعد فتوحاتهم في القارّة الأوربيّة، الرجال السلافيين من البلقان والشّركس من جبال القوقاز وشرقي البحر الأسود كعبيد، وخلقوا منهم نواة الجيش الإنكشاري،كما سيلي شرحه، والذي حكم قادته في إيالات المغرب بصفة خاصّة، مثلما حكم أشباههم المماليك في مصر. وفي شمالي أفريقيا جُلب العبيد من أوروبّا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وفي القرن التاسع عشر – وفي غمار حروب القرصنة المتبادلة - إزداد أخذ الأسرى كعبيد. وهي الفترة التي كانت فيها أوروبّا غارقة في الحروب الطّائفيّة واستنزفت فيها أساطيلها. وغالبا ما كان ينظّم حرب القرصنة هذه المغاربة (المور)، ويشنونّ حملاتها وغاراتها على المدن الأوربيّة قباطنة وملاحون من أصل أوروبّي. على أنه في بداية القرن التاسع عشر شرعت القوى الأوربيّة في محاولات تحرير الأسرى المسيحيين. وكانت أوّل محاولة ذات شأن قصف مدينة الجزائر التي جرت عام ١٨١٦.

وهكذا تطوّرت ظاهرة الرّقّ عبر العصور، حتى وصلت كتجارة الى القارّة الأفريقيّة. وكانت أبوابها إليها متعدّدة. وكما سلف القول لم يلتصق الرقّ بجنس أو لون بشري معيّن، حيث أنّه تسرب الى القارّة منذ عام ١٤٤٢ عندما كانت قوّة من الجيش البرتغالي في عهد الأمير هنري تستطلع الشّاطيء الأفريقي، فقبض (أنتام كونكالفيس) أحد ضبّاطه على بعضهم ، ولمّا جلبهم للأمير، أمره هذا بإرجاعهم الى بلادهم الأفريقيّة، ففعل شريطة أن يقايض المغاربة أنفسهم مقابل عشرة من السّود، وكميّة من التّبر. ومنذ ذلك الحين سرت العدوى بين الأوروبيّين الآخرين وخاصّة الأسبان، عندما شرع البرتغاليّون في بناء المستوطنات على الساحل الأفريقي، إذ شيّدوا في جزيرة (أرجوين) قبالة الشاطيء الموريتاني قلعة اتخذوا منها مركزا لتسويق العبيد والتبر. ومنها توسّعوا - بالنسبة للغرب والوسط الأفريقي - في بناء هذه المراكز والمستوطنات جنوبا، هكذا: سينيجامبيا (السنغال وتتبعها جزيرة كوري التي كانت أول مرفأ لتصدير العبيد ومعها جامبيا)؛ ساحل الذهب (غانا)؛ خليج بنين؛ خليج بيافرا (نيجيريا)؛ لوانجانو (كابيندا وزائير) ثمّ أنجولا. وجميعها كانت منافذ لجلب العبيد من الدواخل الأفريقيّة. أمّا تجارة الرّقّ مع بلدان ساحل شرقي أفريقيا فكانت مراكزها في مومباسّا وزنجبار ودار السلام، لتمارس عبر البحر الأحمر إلى عُمان وبقيّة البلدان المجاورة ومنها إلى تركيا.

وفي القرن السادس عشر نشط الأوربيون في تصدير الرّقيق، فالهولنديّون استوردوه من آسيا إلى مستعمرتهم جنوب أفريقيا، ومن ثمّ تطوّر استخدام العبيد لكي لا يقتصر على خدمة المنازل، بل إلى العمل في الحقول لاسيّما مزارع السكر،حيث تدفقت بكميّات هائلة على أمريكا والكاريبي، فمنذ العام ١٦١٩ بدأ وصول الفوج الأوّل من العبيد الأفارقة الى ولاية فيرجينيا التابعة لأمريكا كمستعمرة بريطانيّة في عهد الملكة أليزابيث، حيث أفرغتهم باخرة هولنديّة وباعتهم لمزارعي التبغ البيض. (كان مجمل سكان ٣٨ ولاية أمريكيّة لا يتعدّى أربع مليون نسمة !) وما أن حلّت سنة ١٧٩٠ حتى بلغ عدد الرقيق ٢٠٠,٠٠٠ عبدا في ولاية فيرجينيا وحدها. وشهدت حركة التصدير عبر الأطلنطي بعد ذلك نموّا مضطردا، فبعد أن كان العدد ٣٦٧٠٠٠ عبدا في الفترة من سنة ١٤٥٠ – ١٦٠٠، قفز إلى ٦,١٣٣,٠٠٠ في الفترة من ١٧٠١ – ١٨٠٠. وفي القرن الثامن عشر بلغ العدد الذّروة، عندما بدأ القبض على العبيد من بني جلدتهم في غرب أفريقيا وشحنهم للعالم الجديد. وقد استغلّت بريطانيا الحروب الأسبانيّة من أجل السلطة لتستولي على عمليّة إحتكار نقل العبيد إلى أمريكا الجنوبيّة الأسبانيّة. ويُذكر أن أشهر الشركات التي تاجرت في الرّقّ كانت: **The Royal African** و **South sea company** البريطانيّتين، وشركة **Le compagnie de logos** أو**Compagnie Francaise de Guinea** الفرنسيّة. وقد قُدّرأنّ ما شحنه التجّار الأوربيّون من الرقيق الأفريقي عبر القرون، قد بلغ ما بين إثني عشر مليونا إلى عشرين مليونا، مات منهم ١٥ % نتيجة ماكابدوه من عذاب أثناء الشّحن، وغالبيّتهم وجّهت إلى أمريكا مع البعض منهم إلى أوربّا وجنوبي أفريقيا نفسها. وبعض المؤرّخين قدّر أن مجموع الأموات منهم ما بين من سقط منهم قبل الوصول إلى الأسواق وأولئك الذين قتلوا في الغارات، قد فاق السبعين مليون نسمة، وهو عدد السكان الذين بقوا في أفريقيا جنوب الصحراء عندما انتهت هذه التجارة الوحشيّة. وفي الفترة من ١٨٠١ – ١٩٠٠ هبط عدد ما ساقه التجّار الأوربيّون الى ٣,٣٣٠,٠٠٠ عبدا.

تطوّر عمليّات إلغاء الرقّ

لقد مرّ علينا أن الرّق قد صاحب الإنسان منذ ما قبل التاريخ، ولكن حركات التخلّص منه ومحاولات إلغائه كانت أيضا مرافقة له بشكل جدلي. وقد بدأت هذه المحاولات في نطاق ضيّق أو فردي أو محصورا في فئة معيّنة. ويسوق المؤرّخون دليلا على ذلك **Exodus** أي النزوح أو الرحيل الذي ورد في سفر الخروج ثاني أسفار العهد القديم من التوراة، والذي قصّ بالتفصيل قيام النبيّ موسي بقيادة العبيد الإسرائيليين في مصر القديمة، ممّا اعتبر تحريرا لهم من الفراعنة. وفي انجلترا وقعت سنة ١٧٧٢ حادثة هروب العبد

جيمس سوميرست، والذي حاول سيّده أن يُرجعه إلى جامايكا، وجاءت قضيّته أمام رئيس القضاة ويليام موري الذي استند على نصوص (الماجنا كارتا) وحكم بعدم جواز إرغام العبد على الخروج من إنجلترا، والذي أصبح بعد ئذ قاعدة، وبعد خمس سنوات صدر حكم في سكوتلاندا في قضيّة مشابهة للعبد جوزيف نايت، حيث حكم القاضي أن الرّق منافي للقانون في سكوتلاندا. وعندما جاء العام ١٧٨٧ وُفق دعاة تحرير العبيد بقيادة (ويليام ويلبيرفورس) إلى تأسيس جمعيّة لمحاربة تجارة الرقّ، بحيث لا تقتصر على داخل حدود بريطانيا بل تتعدّاها إلى حظر نقل العبيد والمتاجرة بهم من قبل التجّار العاملين في المستعمرات البريطانيّة والبلدان الأخرى، بما في ذلك تحريم الأسهم التي كانت الشركات تتداولها والخاصة بهذه التجارة. وقويت الحركة المناوئة للرّق بدعم جماعة (الكويكرس) الدينيّة من طائفة (البابتيست) والتي أسّسها جورج فوكس في أميريكا، ومن طائفة (الميثوديست)، ومن طبقة العمّال الصناعيين الناشئة.

وفي فرنسا لم تكن تجارة الرقيق مصرّحا بها مطلقا داخل حدود البلاد، ولكن كان مسموحا بها في مستعمراتها أو ممتلكاتها ما وراء البحار. وفي ٤ فبراير ١٧٩٤ قام القسّ جريجوار وطائفته بتحريمها. وعندما رفض حكام هايتي الفرنسيّون هذه الأوامر الكنسيّة، ثار العبيد فيها، ثمّ أعيدت ممارستها فيها من قبل نابليون عام ١٨٠٢. إلاّ أنها لم تصمد أمام ثورة الهايتيين عام ١٨٠٣ ممّا أدّى إلى حصول البلاد على استقلالها، وبذلك أضحت هايتي أوّل جمهوريّة سوداء في تلك السنة. على أن الإلغاء الفرنسي الرّسمي للرّق لم يبدأ فعليّا إلا يوم ٢٧ إبريل ١٨٤٨، وهو التاريخ الذي أصدر فيه فيكتور شولشير **Viictor Schoelcher** وكيل وزارة المستعمرات الفرنسيّة مرسوما بإلغائه. وحتى يدفع إلى تنفيذ المرسوم، ألحقه بتحذيرات تهدّد من حدوث إنتفاضات، كتلك التي مرّ ذكرها، إن لم ينصع إليه الجميع. وهكذا، كما جاء في دراسة نشرتها مجلة " لوموند ديبلوماتيك " الأسبوعيّة الفرنسيّة المعروفة بمناسبة مرور ١٥٠ سنة على إلغاء تجارة الرقيق، فإن المقاومة من قبل الإرقاء أنفسهم كانت الحافز الهام على القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسيّة. أي أن تحرّر العبيد حين جاء، كان الفضل فيه يرجع إلى جهود الأفارقة الذّاتيّة، وليس إلى مشاعر إنسانيّة فجائيّة إعترت تجّار العبيد. أمّا أفريقيا القرن التاسع عشر فقد كانت مختلفة عن القارة التي عهدها الأوربيّون لفترة أربعمائة سنة خلت، فأفريقيا جرجرت بسبب تجارة الرقّ إلى طريق خطر جعلها متخلفة، وبذلك انتعشت مجدّدا في هذه الظروف المواتية التفرقة العنصريّة المتجذّرة في تجارة الرّق، حسب قول المؤرّخ الترينيدادي " ولتير رودني "، فالخطاب الأوروبّي الآن تحوّل إلى التركيز إلى مقولة " التخلف " و " التوحّش " الذي يطبع القارة. وعلى قاعدة هذا الحكم التقييمي أصبح الغرب يدّعي لنفسه النموذجيّة،

أي أن الإنحطاط والتأخر في أفريقيا لا يُعزى إلى التطوّر التاريخي الذي لعبت فيه أوروبّا دورها، بل إلى" الطبيعة الغريزيّة " للأفارقة أنفسهم.. وبذلك فالإستعمار والإمبرياليّة الجديدين يكتسيان زيّا إنسانيّا للوصول إلى " تفوّق عنصري " وما يتحمّله " الرجل الأبيض من أعباء ". وبذلك رأينا الدول التي تاجرت سابقا بالرقيق تتحدّث فقط عن " العرب والحكام السّود الذين استعبدوا ". على الرّغم من أنهم شاركوا في هذه التجارة أيضا. كما يتحدّث بحث " لوموند ديبلوماتيك " عن الإنتفاضات والثورات التي خاضها المستعبدون الأفارقة، ودور كلّ من الإسلام والمسيحيّة في إذكاء جذوتها؛ فعندما حاول بعض ملوك السينغال عتقهم ببيعهم في القرن السابع عشرة، نشبت ما سمّيت " بحرب المرابطين " و " حركة التيبونان " (من لفظة التائبين العربيّة وعنوا بها الذين اعتنقوا الإسلام). فقد أعلن مؤسّس الحركة ناصر الدّين " إن الله لم يجز للملوك أن ينهبوا وأن يقتلوا ويستعبدوا شعوبهم. وعلى العكس من ذلك فقد عيّنهم لكي يحافظوا على رعاياهم ويحموهم من أعدائهم. فالناس لم يخلقوا للملوك، ولكن الملوك خُلقوا للناس ". وفي جنوب القارّة، فيما يعرف الآن بأنجولا، كانت شعوب الكونغو تفسّر المسيحيّة بنفس الطريقة، أي ضدّ الإرساليّات التي انتهجت إسلوب المساومة إزاء تجارة الرّق، وكذلك ضدّ الحكام المحليين. وفي بداية القرن الثامن عشر برزت داعية دينيّة في العشرينات من عمرها إسمها كيمبا فيتا، (وعُرفت أيضا باسم دونا بياتريس)، وكانت تدور على رؤوس تجّار العبيد وتحاججهم عن العنصريّة. ومن ضمن مواعظها " أن ليس هناك آخرة سوداء وأخرى بيضاء " وأن " السيّد المسيح وقدّيسين آخرين كانوا سودا وجاءوا من الكونغو "[٢]. وفي ذلك العصر شهدت عمليّات شحن العبيد ونقلهم من أفريقيا عبر الأطلنطي، وتوزيعهم على ولايات العالم الجديد في أميريكا، محاولات هروب بالجملة وإنتفاضات وثورات قادتها رموز كانت تعلم علم اليقين أن مصيرها الموت المحتم، لعدم وجود ملجأ آمن في القارّة الجديدة. وبعض قصص الثورات ُطمس ودُفن مع الثوّار المقموعين. فمنذ ١٧١٢ قامت مجموعة من العبيد بحرق بيوت للبيض في نيويورك راح ضحيّتها عشرة من البيض، وكان ردّ الفعل وحشيّا إذ أحرق المتسلطون البيض ٢١ من العبيد وشنقوا وجرجروا على الأرض حتى الموت عشرات الآخرين. وفي ١٧٣٩ مات في الثورة ٢٠ من البيض و ٤٠ من العبيد. ولعلّ أبرز معارك الثورة ما جرى في ريتشموند عام ١٨٠٠ عندما قام الثائر (جبرانيل بروسّير) **Gabriel Prosser** بحملة غير موفقة للإستيلاء على المدينة. أوعندما قام في ساوث كارولاينا (دينمارك فاسي) **Denmark Vasey** سنة ١٨٢٢ بالهجوم على مدينة شارلستون، وهو عبد جرى عتقه وكان مفكرا سياسيّا لامعا، وساعده في تنظيم الثورة عبد عملاق من أنجولا إسمه (قولاه جاك) **Gullah Jack**. وفي

---

٢ ينظر مقال " تأثير تجارة الرقيق على أفريقيا " بقلم إيريكا مبوكولو – لوموند ديبلوماتيك، إبريل ١٩٩٨

فيرجينيا عام ١٨٣١ قاد رجل الدين الأسود (نات تيرنير) **Nat Turner** مجموعة من الثوّار داهمت مدينة (جيروساليم)، فاحترق من سكانها البيض ٥٧ شخصا جرّاء الهجمة. وكان مصير هؤلاء القادة الشنق وعُلقت جثثهم في الميادين العامّة عبرة لمن يفكر في التحرّر، كما جرى حرق ٣٥ عبدا من أنصار فاسي فقط. ويروى أن القس الأسود تيرنير، عنما كان في السجن تمهيدا لشنقه، كان يبتهل ويقول: " إنني أرى أشباحا بيضاء وسوداء تتقاتل .. والشمس تتوشّح بالسّواد والرعد يزمجر والدماء تسيل أنهارا .. حينها أسمع صوتا يقول لي: أنظر ماذا خلفته الكراهيّة، ويهبّ الأعوان لنجدة من لم يشارك في موقعة أرماجيدّون (وهي السّاحة التي شهدت الحرب بين الخير والشرّ حسب إنجيل العهد الجديد). وفي ١١ نوفمبر ١٨٣١ شُنق القس تيرنير![٣]

ولا غرو إذ شهدت هذه الحقبة صدور القوانين المحرّمة لتجارة الرقّ لأنها أثارت سخط الإنسانيّة لما صاحبها من قهر وتعذيب وحشي. وهكذا أصدر البرلمان البريطاني " قانون منع تجارة الرقّ " بتاريخ ٢٥ مارس عام ١٨٠٧ والذي فرض غرامة عشرة جنيهات عن كلّ عبد يُعثر عليه على ظهر أيّة سفينة. ولكن التحايل على القانون بدأ من قبل ربّان السفن حين أخذوا يتفادون عمليّات التفتيش التي كانت تقوم بها البحريّة الملكيّة في عرض البحار، وذلك برميهم للرقيق في البحر تجنّبا لدفع الغرامة. وهو ما حدا بالحكومة البريطانيّة إلى أن تشدّد العقوبة،فأصبحت عام ١٨٢٧ بمثابة "قرصنة" حُكمها الإعدام. وفي ٢٣ أغسطس ١٨٣٣ صدر القانون بتحريم التجارة في المستعمرات البريطانيّة، وبتاريخ ١ أغسطس ١٨٣٤ تمّ عتق جميع العبيد في الإمبراطوريّة البريطانيّة. غير أن التحايل استمرّ عن طريق جعل الرقيق يوقعون عقودا زمنيّة وكأنهم يمارسون مهنة معيّنة مع سادتهم، وهو ما حتّم صدور قانون الحظر الكلّي للتجارة عام ١٨٣٨. وعلى الأثر كلفت " جمعيّة مناهضة الرقّ البريطاني والأجنبي " والتي تأسّست منذ عام ١٧٢٧ مراقبة هذه التجارة القذرة وممارسة الضغوط على الجهات الأجنبيّة بمنعها، وملاحقة قراصنتها. ثمّ توالت المواثيق الدّوليّة بتحريمها ومطاردة مرتكبيها من البلدان والأفراد والشركات.

وإذا ما تتبّعنا حركات وتطوّر الكفاح ضدّ الرّق وعتقه عبر القارات، فيمكننا إيجازها كما يلي:

كما سبق القول فإن أوّل عمليّة جلب للعبيد من أفريقيا السّوداء كانت بالباخرة المشحونة بهم والمتّجهة إلى أمريكا الشماليّة المستعمرة من بريطانيا، وقد رست بمدينة (جيمستاون) بولاية فيرجينيا عام ١٦١٩. وبدأ الرقّ تحت الحكم الأوروبّي باستيراد اليد العاملة

---

٣ Susnne Everett - Geschichte der Sklaverei –Bechtermuenz Verlag1998.

المهنيّة، ثم أعقب ذلك استعباد السكان الأصليين في جزر الكاريبي، وأخيرا جرى استبدالهم بالأفارقة.

وفي خلال القرنين السابع والثامن عشرة بدأت الثورات والإنتفاضات التي أشرنا إليها ضد الرق: فبموجب (التنظيم الشمال غربي للعام ١٧٨٧ **Northwest Ordinance** وسُمّي أيضا (بتنظيم الحريّة) الذي أصدره المجلس القارّي **Continental Congress** ، حُظر الرقّ في الغرب الأوسط مع استمراره في الشرق. إلى أن مُنع بعد ذلك. وبتاريخ الأول من يناير ١٨٠٨ جرى حظر إستيراد الرقيق إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة، دون منع تجارته داخلها أو تبادلها خارجها. وكان من نتيجة تجمّع ولايات الشمال الحرّة في كتلة جغرافيّة متراصّة شمال نهر أوهايو وخطّ ميسون – ديكسون القديم، أن حدث إنفصال بين الشمال الحرّ والجنوب المستعبد، الأمر الذي أدّى إلى حدوث صراعات سياسيّة وثقافيّة واقتصاديّة حادّة. واضطرّ العبيد إلى الهروب من الجنوب إلى الشمال عبر سكك حديد الأنفاق، وهذا بدوره أثار ثائرة الشماليين، كما أن الغرب الأوسط أصرّ على الحقّ في رفض القواعد التي أصدرها الإتحاد المتعلقة بحقّ اللجوء. وازداد التوتر والإضطراب، وأخذ الشماليّون يناهضون الرقّ، وانفجر الصراع المسلح بصدور قانون كانساس - نيبراسكا في أراضي الأخيرة التي أصبح على سكانها أن يقرّروا بين أن تكون ولايتهم ضمن الولايات الحرّة أو تلك المستعبدة. واستطاع المشرّعون المناهضون للرقّ السيطرة على الحكم تحت راية الحزب الجمهوري.

بعد انتخابات عام ١٨٦٠ التي فاز فيها الحزب الجمهوري باكتساح ليتقلّد إبراهام لنكولن الرئاسة، لم يظهر إسمه في الولايات الجنوبيّة، التي بعد استئثارها بالحكومة الإتحاديّة لعدّة عقود، قرّرت الإنفصال عن الإتحاد (الولايات المتحدة الأمريكيّة) لتشكل (ولايات أمريكا المتآلفة). وهو ما يعني نشأة وطن جديد يُباح فيه الرّق مع السيطرة على نهر ميسيسيبّي والغرب. واعتبر القادة مثل لينكولن أن هذا أمر لا يمكن القبول به، ومن ثمّ اندلعت الحرب الأهليّة. وكان من نتيجتها أن وُضع حدّ لتبادل تجارة الرّق، وأصدر لينكولن عام ١٨٦٣ (البيان بالعتق أو التحرّر) **Emancipation Proclamation** كرمز لانعتاق العبيد داخل الإتحاد، ولكن دون أن تطبّقه ولايات هامّة داخل حدوده، وقيل إنه هو أيضا إحتفظ ببعض العبيد في خدمته الخاصّة !. ومن ثمّ شرع الإتحاد في شنّ الحرب رسميّا وأخذ في الإستيلاء على أراضي الولايات الرّافضة وتطبيق البيان، وتحرّر العبيد فيها وبعضهم انخرط في خدمة الجيش كمساعدين، والكثير منهم انتقل إلى الشمال. والواقع أن الرّق – قانونا - بقي في الولايات المتحدة إلى حين المصادقة على التعديل النهائي الثالث عشر للدستور في ٦ ديسمبر ١٨٦٥ أي بعد مرور ثمانية شهور على انتهاء الحرب الأهليّة.

وممّا يذكر أن (سيراليون) في غربي أفريقيا أنشئت كبلد مأوى للعبيد الذين كانوا تابعين للإمبراطوريّة البريطانيّة وتمّ عتقهم. وكذلك أصبحت ليبيريا المجاورة لها بالنسبة للعبيد الأمريكيين، الذين أراد سادتهم بعتقهم التعويض عن استرقاقهم، بإعادتهم إلى قارّتهم الأصليّة، خاصة وأن بعض نقابات العمّال رفضت تشغيلهم كأيدي عاملة رخيصة. ورغم ذلك بقي الكثيرون منهم في الوطن الجديد. وثمّة من هرب من حياة العبوديّة واتجه إلى كندا المجاورة عبر " نفق سكة الحديد ".

ويعتبر الميثاق حول العبيد الذي صدر بمبادرة من عصبة الأمم المتحدة سنة ١٩٢٦ نقطة تحوّل فاصلة في تحريم الرّق في العالم. ثمّ جاء " تصريح حقوق الإنسان " والذي أبرمته الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة سنة ١٩٤٨، ونصّت المادّة الرابعة منه على تحريم الرّق بشكل صريح. وفي سنة ١٩٥٦ انعقد مؤتمر " العهد الإضافي الخاص بإلغاء الرّق " تحريم العبوديّة واعتبارها غير قانونيّة في جميع أنحاء العالم، بما فيها رقّ الأطفال. وفي ديسمبر ١٩٦٦ صادقت الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة على " العهد الدولي حول الحقوق المدنيّة والسياسيّة الذ انبثق عن عن التصريح العالمي عن حقوق الإنسان. وورد في المادّة الثامنة منه تحريم الرّق. وأصبحت هذه الإتفاقيّة الدوليّة نافذة المفعول في مارس ١٩٧٦ بعد أن صادقت عليها ٣٥ دولة. واعتبارا من نوفمبر ٢٠٠٣ أصبح عدد الدول التي صادقت عليها ١٠٤ دولة.

وعلى الرّغم من هذه المواثيق والمعاهدات، اتّخذ الرّق وتجارته اوجها وأشكالا عديدة في بلدان العالم النامية والمتقدّمة على حدّ سواء، وهي تتراوح ما بين إستغلال الأطفال كأيدي عاملة، إلى إستغلال المرأة في تجارة البغاء. وتقدّر جمعيّات مكافحة الرّق المعاصر أن هناك ٢٧ مليونا من هذه الأنواع من الرقيق أغلبهم من الأطفال والقصّر منتشرين في جميع أرجاء العالم. ولقد جرت محاولات لمكافحتها مثلما سمّي (بروتوكول الكاكاو)، الذي ينصّ على احترام ومراعاة القيم الأخلاقيّة، والإلتزام بمسئوليّات مرتبطة بمجمل عمليّات الإنتاج في هذه المادّة، وهناك مساعي ومفاوضات لتطبيقها فيما يتعلّق بموادّ السكر والقطن وبقيّة السل. ،وبغضّ النظر عن الصعوبات في تتبّع أساليب الرقّ في مسلسل العمليّات الإنتاجيّة، إلا انها خطوة متقدّمة لمطاردة هذا الإستغلال البشع المهين للكرامة الإنسانيّة.

ومن ناحية أخرى انعقدت مؤتمرات دوليّة لشجب وإدانة الرّق، والمطالبة بالإعتذار عن ارتكابه، بل والتعويض عنه. وأبرزها كان المؤتمر الدولي الذي انعقد بتاريخ ٣ سبتمبر

٢٠٠١ بمدينة دوربان في جنوب أفريقيا تحت شعار " مناهضة العنصريّة ". وفي بيانه الختامي " أدان المؤتمر واقع أن العبوديّة والممارسات المشابهة ما زالت قائمة أيضا اليوم في بعض مناطق العالم، ويرجو من الدول أن تعطي أولويّة لاتخاذ إجراءات فوريّة لأنهاء هذه الممارسات التي تعتبر خرقا فادحا لحقوق الإنسان ... ولاحظ المؤتمر أن بعض الدول بادرت بتقديم إعتذارات ودفع تعويضات، في حالات مناسبة، عن إنتهاكات خطيرة وشاملة تمّ إرتكابها ". ولمّا أثير موضوع الصهيونيّة انسحب الوفد الأمريكي بأمر من وزير الخارجيّة آنذاك (كولين باول)، وتبعه طبعا الوفد الإسرائيلي، بحجّة التنديد بالصهيونيّة، ولو أن المؤتمر صادق بإجماع الوفود بما فيها العربيّة والأفريقيّة على فقرة تقول: " يدعو المؤتمر الدول في كفاحها ضد جميع أشكال العنصريّة إلى الإعتراف بضرورة محاربة مناهضة السّاميّة والعنصريّة المعادية للعرب وكراهيّة الإسلام في العالم أجمع ". وحول إنسحاب الوفد الأمريكي في البداية، صرّح الناطق باسم حكومة جنوب أفريقيا: " بأن الإنطباع لدى أغلب الوفود أن الوفد الأمريكي أراد أن يتفادى مناقشة الرّق ومظاهره ". والواقع أن عمليّات الإعتذار وجدت رفضا وصدودا من قبل بريطانيا وأسبانيا وهولندا والبرتغال (الدول العريقة في ممارسته في أفريقيا)، وذلك عندما عُرض الأمر على الإتحاد الأوروبّي في نفس السنة. وبالنسبة للتعويض، فرغم تعقد التقديرات وتشعّبها، إلا أن المؤتمر الثاني للجنة الدوليّة " للتعويضات وحقيقتها " والذي انعقد في غانا عام ٢٠٠٠ توصّل في مداولاته إلى التقدّم بالتماس إلى محكمة العدل الدوليّة بلاهاي، يطالب الولايات المتحدة الأمريكيّة وكندا ودول الإتحاد الأوربّي بتعويضات ماليّة قُدّرت بـ ٧٧٧ تريليون دولار (التريليون يساوي ألف مليارد) وذلك " بسبب التحويل غير القانوني والتدمير للموارد التعدينيّة والبشريّة لطالبي الإلتماس والذي جرى في القارّة الأفريقيّة " في الفترة من عام ١٥٠٣ إلى نهاية عهود الإستعمار في أواخر الخمسينات والستّينات من القرن المنصرم. وهي المرّة الأولى التي قدّرت رقما معيّنا للتعويضات. ولكن هذا الأمر لم تجر متابعته كما نرى، بل طواه النسيان كما يبدو.

قضيّة الرّق في ليبيا

كانت تجارة القوافل مع السودان تمرّ عبر فزان، و خاصة انطلاقا من (أبو نجيم) وواحات الجفرة وعلى طول المنطقة ابتداءً من سرت، وتسيطر عليها القبائل العربيّة أو البربريّة المستعربة وتبرز من بينها قبيلة أولاد سليمان العربيّة المعروفة برئاسة سيف النّصر وعائلته الذين كانوا مناوئين لسلطة القرمانلي في طرابلس، ودائمي الثّورة ضدّها كما هو معروف. وفي العام ١٨٠٦ - ٧ كانت الأوضاع في برقة مضطربة بسبب انتفاضات القبائل، وخاصّة بمدينة درنة، ممّا اضطرّ الباشا الى إرسال إبنه البكر محمّد بي لقمعها

وهو ما قام به بوحشيّة، إذ أعمل النهب والتدمير في درنه، وفي طريق عودة محمّد بي بجيشه تعرّض له أحمد سيف النصر عند سرت واشتبك معه في معركة انتصر فيها محمّد بي، حين قتل سيف النصر وجدّ رأسه، وحمله معه مبتورا إلى طرابلس التي دخلها يوم ١٠ فبراير من السنة التالية [٤].

بينما كانت طرابلس الغرب في عام ١٨١٤ تتمتع بفترة هدوء، بعد إنتهاء أزمة السفينة (فيلاديلفيا) الأمريكيّة وتوقيع اتفاقيّة الصلح بين أمريكا ويوسف باشا عام ١٨١٥، وممّا مهّد الطريق أمام يوسف باشا للقضاء على الفتنة التي زرعها الأميريكيّون واستغلوا فيها أخاه أحمد القرمانلي، وكان هاربا وقتذاك في مصر. وفي نهاية شهر نوفمبر من نفس السنة وصل إلى طرابلس قنصل بريطانيا الشهير **Hanmer Warrington**، الذي سيكون له شأن كبير وتأثير في الصّراعات التي نشبت مجدّدا في بلاط القرمانلي. وسنرى كيف قام هذا القنصل فيما يأتي من عقود بتوسيع النفوذ والمصالح الإنجليزيّة في الولاية ومدّها إلى ما وراء الصحراء. وهي الفترة التي شهدت الضغوط البريطانية والفرنسية المتعاظمة على يوسف باشا، لكبح جماح عمليات القرصنة البحرية بما فيها استرقاق المسيحيين، وجاءت كنتيجة لقرارات مؤتمر **Aix-la-Chapelle** (مدينة آخن الألمانيّة حاليّا)، والذي انعقد عام ١٨١٩ وقرّرت فيه الدّول البحريّة الكبرى توحيد جهودها لمواجهة القرصنة البحريّة. والمعني بها باشاويّات طرابلس وتونس والجزائر، بل وقمعها بالقوّة بُغية منعها منعا تامّا [٥]. ودخل الأسطول الفرنسي طرابلس وحاصرها عام ١٨٣٠، وفرض على يوسف باشا دفع مبلغ ثمانمائة ألف فرنكا فرنسيّا، ولذلك ساءت أحوال الخزانة في دولة القرمانلي، حتى أن يوسف باشا – لمّا ازدادت أعباء الديون عليه- ضرب عملة جديدة رديئة، ثمّ زاد من تعسّفه في فرض الضرائب الباهظة ممّا أشعل انتفاضات القبائل في وجهه. ففي (القبلة) وفزّان قادت الإنتفاضات والتمرّد قبيلة أولاد سليمان التي تسيطر عليها، وفي الجبل الغربي اشتدّت انتفاضة قبائل النوايل بقيادة شيخهم غومة بن خليفة المحمودي. ومن ناحية أخرى اضطرّ الباشا إلى أن يتحول إلى تجارة الصحراء، وخاصة تجارة العبيد السود كبديل عما كان يحصل عليه من عوائد القرصنة.

---

٤ رودولفو ميكاكي (طرابلس الغرب تحت حكم القرمانلي) ص 166

٥ كان قيام الأسطول الفرنسي بقصف ميناء الجزائر العاصمة عام ١٨١٦ مثلا صارخا على القمع الشّديد من قبل فرنسا على وجه التحديد.

ويمكن تلخيص أبرز المراحل التاريخيّة التي مرّت بها عمليّات التوغّل القرمانلي في عهد يوسف باشا في العمق الأفريقي، وانعكاساتها على العلاقات مع بريطانيا وفرنسا، فيما يلي من محطّات:

- كانت غدامس لألفين سنة ماضية إحدى المراكز الرئيسيّة لتجارة الصحراء. وحين قام الباشا عام ١٨١٠ بإرسال فرقة عسكرية إليها رغبة منه في تدشين النشاط التجاري المستقر والدائم مع السودان، قام التجار الغدامسيون بإرسال العطايا و الهبات له، إلا أن جشع الباشا كان بلا حدود مما هدّد بإفلاسهم.
- والواقع إن محاولات الباشا لتنظيم العلاقة بين طرابلس و فزان بدأت منذ أواخر ١٧٩٠ حين أوفد أحد معاونيه، وهو محمد الكانمي كجاب للضرائب، لذلك كان يلقب بي النوبة. وبعد أن ذهب إلى مرزق لهذا الغرض وجد أن ما يحصل عليه قليل بالقياس إلى الثروة الطائلة التي كان يتمتع بها سلطان المنطقة، لذا اقترح على الباشا أن يضاعف ثلاث مرات مبلغ الـ٥٠٠٠ دولارا أسبانيا التي كانت مفروضة كضريبة لعدّة سنين، في هيئة التبر والمسك (Senna) والعبيد.
- وبما أن سلطان فزان محمد المنتصر كان يتدخل في تنشيط تجارة طرابلس المباشرة مع برنو حتى أنه أيد انتفاضات أولاد سليمان، لذا قرّر الباشا الإطاحة به، فقام المكني بمؤامرة انقلابية عام ١٨١١ أسفرت عن قتل السلطان وبعض أفراد عائلته وتشتيت البقية. ومن ثم منحه يوسف باشا لقب (بيْ فزان) والذي كان يتحوّل محليّا إلى لقب سلطان فزان. واستمرّ لمدة تسع سنوات يمارس أسلوب البطش والطغيان لإثراء نفسه و تقوية مركزه.
- منذ العام ١٨١٧ باشر الباشا توسيع سلطته بفرضها بعيدا حتى بورنو، دون أن يثير نظام محمد علي في مصر شرقا والأسرة الحسنية الحاكمة في تونس غرباً. وكانت برنو آنذاك تتعرّض لاختراقات سلطة واداي المتنامية شرقيها، كما تعرّضت في العام ١٨٠٨ لهزيمة عسكرية ألحقتها بها (قوّات الجهاد) من الفولاني. وفي خضم هذه الإندحارات بزغ نجم الشيخ محمد الأمين الكانمي ليقودها إلى النصر، وهو من مواليد فزان ومن أصل عربي. فبعد أن تعلّم في القاهرة، جاء إلى كانم ليصبح فيها شيخا عالي المقام، و بدأ في البحث عن حلفاء ضد تهديدات الباجرمي في جنوب الشرق، والفولاني في الغرب، واتجه إلى طرابلس طالبا دعم الباشا وتوحيد جيوشهما لإلحاق الهزيمة بالباجرمي. ومن جهة أخرى سبق لبورنو أن حصلت على أسلحة من طرابلس ممّا قوىّ من مركزها.
- هذه المبادرة جعلت يوسف باشا يتطلع إلى انشاء نفوذ واسع المدى يجعله يستولي على برنو، فطلب من بريطانيا عن طريق صديقه وارنجتون عام ١٨٢٠ ، مساعدة لإعداد جيش يتكوّن من ٦٠٠٠ جنديّا، وهو ما يتطلذب توفير ٢٥,٠٠٠ جنيها إسرلينيا، وأراد أن يقايض ذلك بالتوقف عن تعاطي تجارة العبيد ،لأن ما توفّره

التجارة مع السودان وبورنو بالذات بالإضافة إلى مسحوق الذهب سوف يعوّض عنها.

- مع قناعة وارنجتون بمصلحة بريطانيا في تأييد المشروع قام الرحالة الرائد **W.H.Snyth**، الذي زار طرابلس عام ١٨١٦ بحجّة البحث عن الآثار، بالاقتناع هو الآخر وكتب إلى حكومته بدعم المشروع غير أن الملازم **Alexnder Gordon Laing** ، الذي قام برحلته من طرابلس إلى تمبوكتو عام ١٨٢٥، شكك في وجود سلطة للباشا أبعد من غدامس جنوبا، ولو أنه يعترف بأن الطريق التجاري إلى بورنو يقع تحت سيطرته. كما أن وارنجتون،في تحمّسه للمشروع وحثّة **Whitehall** (أي وزارة الخارجية) على دعمه، وصل إلى أن يكتب إليها قائلا: " إن الطريق من طرابلس إلى بورنو مفتوح بقدر إنفتاح الطريق بين لندن وأدنبره " [٦] وأجمع المكتشفون مثل جيمس ريتشاردسون على أن وارنجتون كان يقلل من خطورة ووعورة إجتياز طرق القوافل في الصحراء. و كتب عن وارنجتون: " إنه جعل الباشا رهن إشارته بل ومنساقا من خياشيمه تحت إمرته ". وهو بذلك قلل من خطورة الطريق حتى جعله "آمنا مثل الطريق من لندن إلى باريس " [٧].
- ويذكر هنا أن إنحطاط الوضع المالي ليوسف باشا قد أوقعه بين براثن الإبتزاز والصراع البريطاني الفرنسي في الولاية المتمثل في النزاع الشخصي بين القنصل البريطاني وارنجتون **Warrington**والقنصل الفرنسي روسّو **Rousseau** . وكان تحسّن علاقة الوالي مع القنصل الفرنسي أدّى إلى سوئها مع القنصل البريطاني، يضاف إلى ذلك أن الرحّالة الإنجليزي لينج المشار إليه أعلاه، والذي تزوّج إبنة القنصل البريطاني (إيمّا وارنجتون)، قد قتل أثناء رحلته في تمبوكتو سنة ١٨٤٦ على أيدي قطّاع الطرق، وإدّعى وارنجتون أن روسّو إستولى على ما كان لدى القتيل من وثائق وخرائط. ولكن التحقيقات أثبتت عدم صحّة الإدّعاء. ورغم ذلك سُحب القنصل الفرنسي من قبل حكومته بناء على طلب يوسف باشا – إضافة إلى أن التغييرات في أجهزة التمثيل الفرنسي في الدول الأجنبيّة بعد الثورة الفرنسيّة عام ١٨٣٠ قد شملت القنصليّة في طرابلس- وقد حلّ محلّه القنصل شفيبيل **Scwebel** الذي وجد حظوة لدى الباشا لحسن سلوكه. وهو الأمر الذي أغاظ وارينجتون. [٨]

---

٦ ورد في بوفيل ـ مهمات ـ ناقلا نص المراسلات بين وارنجتون و لينج ، ص ١٥٨

٧ جون رايت ـ مرجع سابق ص ٥٩ ـ ٦٨

٨ لقد رأينا وسيتضح لنا الدور الخطير والمؤثر الذي اضطلع به هذا القنصل، الذي قضى في منصبه أكثر من عقدين من الزمن في عهد يوسف باشا القرمانلي إلى أن عصفت به الأحداث المعروفة، فتدخّل في صراعات الأسرة، ودعّم المكتشفين والرحّالة وكان له دور ملحوظ في اكتشافات الرحّالة في الجنوب الليبي والسودان الأوسط، وكذلك الآثار الرّومانيّة مثل (لبدة). ولكنه عمل أيضا على نقل بعض محتوياتها الثمينة إلى متاحف لندن. مات ودفن مع بعض أفراد أسرته في مدينة طرابلس يوم ١٨٤٣/١٢/١٢ (وقد أثبت ذلك المؤرّخ مصطفى بعيّو في كتابه –المختار في مراجع تاريخ ليبيا- الجزء الثاني ص ٢٥ بصورة له أمام القبر ونصبه المنقوش

- روى ليون عن قيام الفزّانيين بجلب العبيد بأنفسهم بدلا من شرائهم من التجار العرب والتبو، وذلك بشنّ الغارات. فقد شاهد في مرزق تجهيز حملة عسكرية ضد تبو (بوركو) مكوّنة من عرب وصلوا من سوكنه والقرى المجاورة لها، كما أن قوّة من الفرسان جاءت من بني وليد. وفي ١٢ يوليو ١٨١٩ تجمّعت القوّة وقوامها ٣٠٠ من الفرسان و ٨٠٠ من المشاة ومعهم ٢٠٠ جملا. وبعد ستة أشهر من ذلك التاريخ رأى بنفسه عودة الحملة من بورنو وبحر الغزال (في تشاد) وهي محمّلة بـ ٨٠٠ من البؤساء كهياكل عظميّة رثّي الثياب، ومن ٢,٠٠٠ - ٣,٠٠٠ من المهري و ٥٠٠ من الحمير بالإضافة إلى ١٠٠٠ بعيرا، والكثير من الأسرى لقيوا حتفهم في الطريق. أمّا الموتى من الأطفال فقد تمّ تجاهلهم[٩].
- في عام ١٨٢١ إستنجد الشيخ الكانمي من بورنو بيوسف باشا، طالبا تجهيز حملة مشتركة للقضاء على تمرّد مملكة باجرمي. واستجاب الباشا بأن أعدّ جيشا قوامه٤٥٠ من الفرسان و ١٣٠٠ من المشاة بقيادة بيْ فزان آنذاك مصطفي الأحمر، وفي نيّته استغلال الحملة للقيام بجلب العبيد. و فعلا تمّ له ذلك مع اكتسابه خبرة عسكرية بتوغله عسكريا لأوّل مرّة إلى هذه الحدود القصيّة من السودان الأوسط، ممّا سيساعده بعدئذ على تنظيم هجوم مقبل للإستيلاء على بورنو.
- في الأثناء كان التنسيق جاريا بين الباشا و السلطات البريطانية التي أرسلت في الأعوام ١٨٢٢ ــ ١٨٢٥ بعثتها الإستطلاعيّة إلى بورنو، بعد التمهيد الذي قامت به الغارة القرمانليّة. وكانت البعثة البريطانية مكوّنة من **Dr. Walter Oudney** الجرّاح الإسكتلندي، الذي أصبح نائب قنصل في بورنو، ـ حسب التعليمات المعطاة له من ريتشي- " بتحقيق إكتشافات ناجحة أكدت ما جرى من محاولات في دواخل أفريقيا، وساهمت في نشر وتوسيع نطاق تجارتنا في أعماق تلك القارة، كما حمل معه عيّنات من البضائع الإنجليزية، وطلب منه في التعليمات بأن يعوّد السكان هناك على تعلّم إسم بريطانيا وأساليبها.[١٠]

أمّا العضوان الآخران، وهما المقدم هيو كلييورن و المقدم ديكسون دينهام، فقد كلّفا باستطلاع دواخل القارة، واتبعا مجرى نهر النيجر مع ترتيبات سريّة اتُخذت في لندن كي تظهر البعثة مرة أخرى في حوض النيل في مصر. واتخذ التنسيق القرمانلي البريطاني صيغة عملية حين اقترح وارنجتون أن يُعيّين نائب قنصل مقيم في مرزق لخدمة الأهداف البريطانية تحت غطاء حماية من باشا طرابلس، الذي اتفق معه على حماية البعثة البريطانية إلى بورنو بقوّة ألف جندي، مقابل مبلغ زهيد قيمته ٥٠٠٠ جنيها. إلا أنه حين غادرت البعثة مرزق إلى بورنو في نوفمبر ١٨٢٢ لم يقم بحراستها أكثر من ٢٠٠

بالإنجليزيّة- وهذا يخالف ما ذكره المؤرّخ بوفيل الذي ادّعى في تاريخه لسيرة القنصل أنه مات في بلدة بتراس في اليونان عام ١٨٤٧).

٩ ليون Travels ص.٢٤٩ ـ ٥٠

10 5- 54ص 1946 Oxford Britan the Sudan ane westen Sudan 1861. A. A Boahen– 1788

عسكري من جنود الباشا، وقوبلت البعثة يوم وصولها خارج كوكا، وهي عاصمة بورنو الجديدة غربي بحيرة تشاد، بثلة من جيش الكانمي تمتطي الجياد ومنظّمة تنظيما جيّدا أدهش القوّة العربية والبعثة البريطانية عهلى السّواء.

- أتاح هذا التعاون القرمانلي البريطاني للباشا أن يظهر قوته العسكرية، وحقق لبريطانيا اكتشافات في أفريقيا وقواعد انطلاق لمستعمراتها في المستقبل، خاصة أن بعثة دينهام وكليبورن قامت بمسح لبورنو وبلاد الهوسا، بعد أن مات أودين عام ١٨٢٤ في بورنو. ورغم أن السلطات البريطانية عبّرت عن الرغبة في الإستفادة من الإستطلاعات و نتائجها المساعدة في محاربة تجارة الرّق، إلا أنها لم تستطع أن تصل إلى ترتيبات عملية في ذلك مع المسئولين في طرابلس إلا بعد مرور ٢٥ سنة من ذلك الوقت.
- بعد إلغاء تجارة الرّق عبر الإطلنطي، فتحت حملة **Thomas Fowell Buxton** عيون الرأي العام البريطاني لأول مرّة عام ١٨٣٠، على فظائع هذه التجارة. وقد قُدّر أن معدّل ٢٠,٠٠٠ عبدا كانوا يُجلبون سنويّا إلى موانئ طرابلس والمغرب ومصر، مع نسبة وفاة في الطريق تصل إلى ٤٢ %. ورغم أن تركيا العثمانية أطاحت بالقرمانلي، وأعادت حكمها المباشر على ليبيا عام ١٨٣٥، إلا أن هذا لم يغيّر من امتهان تجارة الرّق. فاعتبارا من عام ١٨٤٠ أو ١٨٤٣ مارست بريطانيا وجمعيّات محاربة. الرّق الضغوط على سلطان تركيا وحكام شمال أفريقيا المسمّاة آنذاك (البرباريا) لإلغائها، فاستجابت تونس على الفور، ورفضت المغرب، وكانت أكثر قوّة و أقلّ عُرضة للتهديدات. أما طرابلس والآستانة فكان موقفهما غامضاً. ورغبة منها في إكمال تحرير تجارة الرق، وتشجيع التجارة المشروعة، استجابت الحكومة البريطانية لاقتراح قنصلها وارغنتون ففتحت قنصليّة واحدة في مرزق عام ١٨٤٣، والأخرى في غدامس عام ١٨٥٠ وهما محطّتان رئيسيّتان لتجارة الرّق. و بذلك أرادت بريطانيا السيطرة على طرق قوافل الصحراء وتوسيع تجارتها مع كامل السودان الغربي، لكي تُحرم فرنسا من مطامحها التي أخذت تتوسّع في الصحراء بعد احتلالها للجزائر.
- في عام ١٨٤٥ ــ ٦ وصل إلى مرزق **Jams Richardson** مندوب جمعية مكافحة الرق، وأجرى أبحاثه التي أظهرت أن معظم العبيد في غدامس جاءوا من بورنو، والبعض الآخر جاء من السودان و تمبكتو. ولم تكن غدامس آنذاك خاضعة لقوانين منع الرق، لأنها تجارة تدرّ دخلا رئيسيا على حكامها، خاصة أن الطريق إلى تونس أغلقها البيْ، وأن الجزائر وقعت تحت الإحتلال الفرنسي. ثم يصف ريتشاردسون حالة العبيد المزرية، كما يذكر تقرير من **GB gagliuffi** نائب القنصل البريطاني في مرزق أن التجار المور والعرب، رغم أنهم لا يربحون كثيرا من تجارة الرق، إلا أنهم رغم ذلك يزاولونها (كربح عاطفي) أو كمتعة عاطفيّة ! ووجد ريتشاردسون أن التبو كانوا أبشع من يسوّق العبيد قياسا بالتوارق، بل وحتى بالتجّار الطرابلسيين. وفي تقريره الذي رفعه إلى الجمعيّة، وصف ريتشاردسون

هذه التجارة كونها" أفظع شرّ مستطير شهده العالم ". وفي كتابه (رحلات **Travels**) إستشهد بما كتبه جاليو في عام ١٨٤٩ من أن قافلة من ١٦٠٠ عبدا جيء بها من بورنو، ماتوا عن بكرة أبيهم عطشا، وأعقبها ٨٠٠ آخرين ماتوا على نفس الطريق. ولم يمنع وجود نائب القنصل من إستمرار هذه التجارة، إذ أنها تحوّلت إلى ممرّات أخرى غير معروفة نحو البحر الأبيض.

- وقد لاحظ هاينريش بارت وهو في بورنو عام ١٨٥١ إقلاع قافلة من ٧٥٠ عبدا. وقال إن العبيد مازالوا يشكلون الصادرات الرئيسية لهذه السلطنة. وقدّر القنصل البريطاني في طرابلس عام ١٨٥٨ أن تجارة الرقيق تمثل ثلثي حجم التجارة عبر الصحراء، و يؤكد ذلك أن عائدات ميناء طرابلس عام ١٨٥٠ ازدادت مع كل من ألبانيا، رودس، قبرص، إسطامبول والشرق. وفي ذات الوقت فإن بنغازي التي كانت آنذاك المحطة النهائية في الشمال لتجارة عبر الصحراء الآتية من طريق الواداي، والتي جرى تطويرها، غدت أهمّ منفذ يصدّر منه الرقيق الأسود. وحسب تقرير للقنصل البريطاني هناك عام ١٨٤٩، أن ٤٠٠ عبداً كانوا يموتون من مجموع ١٦٠٠ عبداً أثناء المسيرة من واداي [١١].
- تحت الضغوط البريطانية حظر السلطان التركي تصدير العبيد من طرابلس بنغازي ودرنه إلى كريت ومنها إلى أنحاء الإمبراطورية العثمانية. وأعقب ذلك صدور مرسوم بمنع شحن العبيد عن طريق البر أو البحر بين طرابلس وتركيا،ثمّ صدر عام ١٨٥٧ أمر إلغاء التعامل في الرّق ـ وليس الرقّ نفسه ـ داخل الإمبراطورية، وذلك حسب التفسير التركي للشريعة الإسلاميّة. وممّا تضمّنته الأوامر: منع بيع الأم وولدها بيعا منفردا، ويُصبح الولد حرّا عندما يقبل السيّد أبوّته وبذلك تتخلّص الأم من عمليّة بيعها. والولد عندئذ يتساوى في الحقوق مع إبن السيّد الحقيقي وبالتالي لا يستطيع السيّد بيعه من جديد دون رضاه، كما أن السيّد يعتق العبد الذي يريد أن يتزوّج [١٢].

وممّا لا شكّ فيه أن إلغاء تجارة الرّقيق في الإيالة، كانت له آثار سلبيّة على حجم تجارة القوافل في الصحراء، إذ تغيّرت طرقها واتجاهاتها. وقد جاء هذا في تقرير للفنان الألماني **Wilheim Heine** الذي زار طرابلس عام ١٨٥٩ حيث قال فيه: " منذ إلغاء تجارة الرقيق في الأيالة، فإن القوافل الآتية من الدواخل حوّلت اتجاهها إلى الشرق، أي مصر،

---

١١ في حديثه مع المؤرّخ الليبي د. فرج عبد العزيز نجم، يذكر المؤرّخ البريطاني جون رايت أنه زار مدينة إجدابيا عام ١٩٩٨، وقابل فيها بعض الرّجال الذين كانت لهم علاقة بتجارة العبيد، وروو له قصصا مروّعة عن التجّار الليبيين عديمي الإنسانيّة الذين كانوا يجرجرون الإيماء بالسلاسل وهن يحملن أطفالهن، وإذا ما صرخ الأطفال قاموا بانتزاعهم من أمهّاتهم ورميهم في الصحراء إـ القدس العربي اللندنيّة أكتوبر ٢٠٠٢

١٢ (الصراع التركي الفرنسي) لعبد الرحمن تشايجي، ص ٥٥

أو إلى الغرب، أي الساحل المراكشي، ونتيجة لذلك اضمحلّت حركة المواصلات وهبطت الواردات بشكل ملحوظ "[١٣]

وكما سبق ذكره فقد كان الرّحّالة الجغرافيّون يقومون بمهمّة متابعة هذه التجارة عبر الحدود الليبيّة، ولذلك واجه أغلبهم مشاقّ ومخاطر أودت بحياتهم مثلما جرى لبعثة ريتشاردسون الذي اتجه عام ١٨٥٠ إلى كوكا عاصمة بورنو، ولكنه مات في الطريق، وبارت ذهب إلى المدينة التجاريّة الكبرى (كانو) ثم استطلع مع أوفيرفيج المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد. وبعد موت الأخير في نوفمبر ١٨٥٢ سافر بارت إلى سوكوتو في طريقه إلى تمبكتو التي وصلها في سبتمبر ١٨٥٣ وأقام فيها لمدة ستة أشهر، وفي طريق العودة التقى بعثة إدوارد فوجيل **E.Fogel** ، وهو ألماني آخر كان في خدمة الحكومة البريطانيّة. وبينما عاد بارت إلى طرابلس ومنها إلى إنجلترا في خريف ١٨٥٥، واصل فوجل رحلته إلى السودان حيث قتل عام ١٨٥٦، ومات بقيّة أعضاء بعثته الخمسة في العام التالي. وبعد عامين من رحلته نشر بارت تحقيقاته في خمسة مجلّدات تحت عنوان (رحلات واكتشافات في شمال ووسط أفريقيا) ، والتي اعتبرت خاتمة أو تتويجا لجهود بريطانية دامت سبعين سنة للتغلغل في دواخل أفريقيا إنطلاقا من طرابلس.

وحسب جون رايت سرعان ما تخلّت بريطانيا عمّا حقّقته من نجاحات سياسية وتحوّلت إلى الإستطلاع والتغلغل عن طريق الملاحة النهريّة من خلال النيجر وروافده، فمنذ عام ١٨٤٥ توجّهت الباخرة **Pleiad** التي صُمّمت خصيّصا وعلى ظهرها ستّ و ستّون من البحّارة لم يمت أحد منهم أثناء الرحلة، بسبب تناولهم (للكينيين) كعقار واق وليس كعقار للعلاج. والمراكب التجاريّة التي زُوّدت ببنادق محشوّة طويلة المدى والكينين، كانت جميعها إذن هي العدّة التي استعملتها بريطانيا لاستطلاع دواخل أفريقيا الوسطى عبر نهر النيجر، مفتتحة عصرا جديدا من أساليب الإستغلال والإستعمار، تاركة بذلك التوغّل عبر الصحراء لقوى أوروبيّة أخرى مثل فرنسا التي أتيح لها أن تتوسّع من مراكزها في الجزائر والسينغال، لعلّها تجد تعويضا عن هزيمتها في حرب ١٨٧٠ . وبذلك تكون بريطانيا قد تخلّت عن الوهم الذي طالما راودها حول ثروات أفريقيا - اعتمادا على تقارير ومؤلفات الجغرافيين العرب - وتأكد لديها عن طريق مكتشفيها أن هذا الإقليم من أفريقيا هو إقليم فقير، ولولا تجارة العبيد ومنظومتها لكان أفقر مناطق العالم في ذلك العصر.

---

13 . E. Leva (Tripoli in Una descizione Due cente anni fa)

وجاء إغلاق القنصلية البريطانية في غدامس عام ١٨٦٠ أيذانا ببدء هذه المرحلة من إنحسار الإستعمار البريطاني في الوسط الأفريقي.

وإشباعا لطموحها في العظمة الإمبراطورية، فكرت فرنسا في إنشاء خطّ سكك الحديد عبر الصحراء إنطلاقا من الجزائر. ونتيجة للإنسحاب البريطاني تحوّل الصّراع من صراع فرنسي ـ بريطاني مباشر عبر الصحراء، إلى صراع فرنسي ليبي فيها [١٤].

ومن بين الذين رصدوا تجارة الرّقيق في أفريقيا، كان جيمس ويللارد في كتابه القيّم (الصحراء الكبرى) الذي انطلق برحلته في أواخر الستينات من القرن المنصرم، من طرابلس عبر مرزق، ومنها توغّل في الصحراء الجنوبيّة. وقد لخّص مشاهدات الرحّالة الأوربيين الذين سبقوه. وفي تعرّضه لتجارة الرّق، كتب يقول: " في البداية كان القبض على عشرات الألاف من الأسرى عملا يقوم به شيوخ العشائر الأفريقيّة في حروبهم العشائريّة من أجل الحصول، قبل كلّ شيء، على النساء يضيفونهم إلى الحريم. أمّا العبيد الذكور فلم تكن لهم فائدة. وهكذا كان شيوخ العشائر يتخلّصون من الأسرى الرّجال الذين أصبحوا فيما بعد غنائم ثمينة. وقد شهد (بارت) في رحلته بالسّودان عام ١٨٥٢ إحدى طرق التخلص فكتب يقول " **لقد شهدنا برعب عظيم كيف ذُبح مائة وسبعون رجلا بلا رأفة وبدم بارد من بين ألف أسير. وكان أكثرهم ينزف دمه حتى يموت إذ تُقطعت إحدى ساقيه لهذه الغاية** ". إن هذا القتل العابث لحيوان نافع للعمل هو بالطبع خاصّة نموذجيّة من خصائص شيوخ العشائر الأفريقيين الذين لم ينبئهم العملاء بقيمة ١٧٠ رجلامن البالغين. ذلك حيث أمكن العرب تنظيم تجارة الرقيق، أُنقذت آلاف الأرواح، أو على الأقلّ حظيت بفرص البقاء على قيد الحياة بنسبة واحد إلى عشرة. إن مبدأ بيع الناس هذا بدلا من ذبحهم قد أقرّه مثلا الكونغوليّون، فنحن نجد مستكشفا إيطاليّا يحدّثنا كيف أن واحدا من سكان الكونغو الأصليين كان في حالة من اليأس الشديد لأنه باع إخوته وأخواته وأولاده وأباه وأمّه، ولم يبق لديه للبيع سوى زوجته، وشرفه الشخصي يمنعه من أن يبيعها. وعندما بلغ العرب البلاطات الملكيّة الأفريقيّة نظّموا فورا أسلوب البيع على الأساس المعتاد، وهو الأساس الذي كان القرطاجيّون قد اعتمدوه قبل ألفي سنة. ويتلخّص في تبادل ألعوبة أوربيّة مموّهة لقاء (منتوجات) أفريقيّة قيّمة، مثل شاب قويّ أو فتاة سوداء جميلة أو فتيان وفتيات يصلحون لقصور الحريم. وأصبحت المسألة الآن مسألة الحصول على عدد كاف من الأسرى أحياء، لا مسألة قتلهم عندما يقعون في الأسر. ولهذه الغاية نظّم العرب الغارة، وهي كلمة تعني صيد الإنسان،

---

١٤ جون رايت ـ مرجع سابق ص ٦٨ – ٧٢.

رغم أن المسلمين لم يغب عن بالهم يوما أن الكافر هو من وجهة النظر المعنويّة رقيق أفضل من الأسود. " [١٥] ويورد (ويللارد) رواية ليون - وكان أوّل أوروبّي قام برحلة في فزّان - غارة قام بها الرّعاة العرب على قبائل التبو عام ١٨١٩، إذ قال: " إن مائتين أو ثلاثمائة رجل فقط حصلوا في صبيحة يوم واحد على ألف أو ألف وخمسمائة رقيق. وعندما أعطي الأمان للسكان، استولى المغيرون على الجمال والأغنام والمؤن، وتابع العرب مرهوبو الجانب هؤلاء سيرهم وغزوا عشائر متنقلة أخرى بالطريقة نفسها ". ويشرح ويللارد الوضع كما يلي: " لقد كان في استطاعة العرب إذن، مع إغضاء شيوخ القبائل الأفريقيين وتسترهم، أن يحققوا غاية مزدوجة عن طريق غاراتهم هذه. فهم أولا يؤدّون خدمة نافعة لملك ما من الملوك المحليين يريد إضعاف جيرانه بأخذ رجالهم للإسترقاق، وهم ثانيا يزوّدون التجّار الأوربيين بسلعة أفريقيّة لم يكن باستطاعة هؤلاء أن يحصلوا عليها بعد لأنفسهم." [١٦] أمّا الرحّالة ليون فيصف " خصي الأسرى الذي كان جاريا في المنطقة ما بين بحيرة تشاد – بيلما - مرزق إلى طرابلس، لاستخدامهم في في قصور الملوك الأفارقة وشمال أفريقيا وجزيرة العرب وتركيا. بينما يذكر الرحّالة (دينهام): أنه كان لسلطان برنو أكثر من ٢٠٠ خصيا في حريمه لا يتجاوز أحدهم عشرين سنة، في الوقت الذي كان لسلطان باجيرمي- الذي يقال أن زوجاته بلغن ألف إمرأة تقريبا - ثلاثة أضعاف ذات العدد من الخصيان الذين وقعوا أسرى. وهناك قصص أخرى تصف الوحشيّة في نقل العبيد عبر الصحراء [١٧]. وفي هامش الفصل يذكر ويللارد بالمصادر الأوليّة التي بحثت في الإسترقاق من قبل الأوربيين - لأن العرب لم يدوّنوا عنها شيئا كما قال - مثل كتاب بييترو كافازي **Pietro Cavazzi** الإيطالي في كتابه " التاريخ السرّي لممالك الكونغو الثلاث " الصادر في بولونيا عام ١٦٨٧، والذي قرّر فيه أن الإسترقاق على نطاق واسع، ولم يُعرف له مثيل سابق، كان قد توطّد في جميع أنحاء أفريقيا الوسطى قبل وقت طويل من وصول العرب والرجل الأبيض لاستغلاله.

هجرة أولاد سليمان و تأثيرهم في حياة تشاد

حتى القرن التاسع عشر كانت العلاقات التجارية المتبادلة نشيطة بين ليبيا و تشاد المتجاورتين، ومن ثمّ بين طرابلس وإمبراطورية (بورنو) عبر كاوار، وهي مناطق تشكل اليوم أجزاء من جمهورية النيجر المعاصرة و شمال نيجيريا. وعلى الرغم من أن التجارة

---

١٥ (الصحراء الكبرى) لجيمس ويللارد ص 162-- مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا - مايو ١٩٦٧

١٦ نفس المرجع ص ١٦٣ .

١٧ نفس المرجع إعتبارا من ص ١٦٦

مع كل من كانم و الباجرمي و الواداي، والتي كانت ذات أهمية ثانوية مع ليبيا كمتنفس لبورنو على المنافذ البحرية ومصدرا للمواد الخام من أجل تجارة التوزيع لبورنو على المنافذ البحري، إلا أنه منذ العام ١٨٤٠ توطدت العلاقة والصلات الشخصيّة بين رجال قبائل الجانبين، بالإضافة إلى انتشار التأثير الديني السياسي الذي بدأ من ليبيا في وسط تشاد الحالية، كما فتح طريق تجاري مباشر بين شرقي تشاد وبرقة. وكان روّاد هذه العلاقات الوطيدة قبيلة أولاد سليمان القاطنة في الوسط والجنوب من ليبيا، والتي شكلت بعد ئذ تحديّات ومخاطر سياسية إقتصادية خارج الصحراء.

وأولاد سليمان، المتحدّرون من بني سليم الغزاة العرب في القرن الحادي عشر، هم قبيلة برزت بعد أن حسمت النزاعات بين فصائلها المتناحرة ووحّدت صفوفها، فاتخذت تحت زعامة عائلة سيف النصر المرموقة موقعا عسكريا و سياسيا معتبرا في الصحراء الوسطى عند نهاية القرن الثامن عشر، وكما هو الشأن مع أغلب القبائل الليبية الكبيرة، كان اتجاهها صوب الشمال والجنوب ما بين السهوب الصحراوية من خليج سرت - حيث ترعى الإبل و الخيل والغنم، ويُزرع الشعير في الوديان الخصبة نوعا ما، وحيث واحات النخيل المثمر في شمال فزان.

وخلال القرن السابع عشر أنشأت القبيلة علاقة سيّد بمسود مع أقوام (السمنو) و(التيمينهت) وواحات سبها، حيث كانت تحصل منهم على احتياطيّها من التمور المجففة اللازمة لقوافل الصحراء ذات المسافات البعيدة، وارتبطت بالمصالح التجارية مع واحات الجفرة في هون والوذان وسوكنه في التخوم الغربية لأراضي قبيلة أولاد سليمان، ومع واحة زلة في الشرق على طريق أوجله - مصر. والذين استطاعوا أن يحافظوا على روابط مترامية إقتصادية و سياسية وعلى شكل منتظم وسنوي للتجارة والتحركات البشرية في الصحراء، كانوا هم القبائل الكبيرة أو تجمّعات القبائل الصغيرة التي تدين بالولاء لنفوذ قبيلة مركزية. أما القبائل الأخرى الأقل حجما فليس لديها من منافذ إلا التوجّه إلى موارد طرابلس الغرب أو شمال فزان، مالم تنشئ تواجدا أوسع بالارتباط مع تجمّعات أخرى من شبه الرعاة في غربي ليبيا [١٨] ومنذ بداية القرن التاسع عشر ثمّة أربع مجموعات رئيسية في منطقة سرت: أولاد سليمان؛ القذاذفة؛ والمغاربة ومعهم ورفلة من جنوب شرقي طرابلس الغرب. وهذه القبائل غالبا ما توحّد صفوفها - ضمن حفاظها على هويّاتها الخصوصيّة - في وجه

---

١٨ (فزان وطرابلس) باريس١٩٦٣ ص ١٠٢ A. Gaunceille و E.L. Peters (التنوع الثقافي والإجتماعي في ليبيا - ليبيا منذ الاستقلال) ص1982 108 Beckeorham

القبائل الأخرى، أو إذا ما شعرت بدنو أخطار خارجية. وهذا التحالف الذي يطلق عليه الصفّ الفوقي يجمع القبائل التي ترعى في منطقة سرت الداخلية. وهم أخصام تقليديون لصفّ البحر، وهو تحالف القبائل المطلة على ساحل البحر الأبيض. ورغم كبر حجم قبيلة أولاد سليمان بمقاييس الصحراء إلا أنها لا تستطيع أن تجنّد إلا بضعة مئات من المحاربين في معركة واحدة، إذ يعتبر عدد ٣٠٠ محاربا كبيرا نوعاً ما. وفي وقت السّلم يعتمد بقاء القبيلة على حريّة حركتها بين منطقة الرعي شمال شبه الصحراء في سرت وواحات فزان، مع التدفق المنتظم لأفرادها من الفجاج التي تبعد أكثر من ٥٠٠ كم. ومما يرسم حدود نفوذ القبيلة هو ممرّ التجارة الرئيسي بين طرابلس الغرب والسودان الأوسط ، فهذا يمكنها من توسيع هامش حياتها لأنها تحتمي بالقوافل أو تغير على تلك التي ترفض الدفع. وأثناء الحرب، حين يتوقف النجاح على مدى حشد الرجال أكثر من مدى رقعة الأراضي، فإن بقاء القبيلة يعتمد على قدرتها في الهجوم والإغارة بسرعة، وباستعجال عنصر المفاجأة إعتمادا على الخيل والإبل، كما أن الدفاع يعتمد على القدرة على تفادي ملاحقتها في الصحراء من قبل الخصوم.

والمصدر الآخر لاسترجاع القبيلة لقواها، هو قدرتها على التغلب السريع على النكبات. فمنذ نهاية القرن الثامن عشر عانى أولاد سليمان من سلسلة الهزائم المدمّرة التي بدا أنها ستُنهي وجودهم المادي، إلاّ أن القبيلة استطاعت أن تستعيد قوّتها العدديّة مثبتة نفس المقاومة المذهلة في تحدّي الأغراب، تطلعا للسيطرة على الصحراء الوسطى بين البحر الأبيض وفزان. ونظراً لقلّة مواسم الرعي الجيد، فإن القطعان الضّالة غالبا ما يسهل تجميعها، بينما تمّ - في غضون ١٥ إلى ١٧ سنة- تنشئة جيل جديد من المحاربين القساة من نساء القبيلة ومن العبيد الناجين من المذابح، إلى ذلك يُضاف أسرى الحروب الذين صار تبنّيهم. علاوة على ذلك فإن زعامة القبيلة الممثلة في عائلة سيف النصر كانت مترابطة وفقاً للتقيّد بالزواج من الأخوات الصغيرات للسلاطين، مع إنشاء تحالفات بالتزاوج من النبلاء المقيمين في تخوم الصحراء. وكان أولاد سليمان وحلفاؤهم من القبائل الأخرى دائما معارضين لمحاولات القرمانلي ترسيخ سلطتهم في طرابلس، متضايقين بصفة خاصّة من دفع الضريبة السنويّة. ولم تكن علاقة القبيلة مع طرابلس ما بين عام ١٧٨٠ و١٨٤٠ ثابتة، إلا أن أهدافها كانت بكل بساطة أن يسمح لها بالحريّة وأن يُعترف لها بالنفوذ السياسي والإقتصادي في وسط ليبيا.

ومنذ العام ١٧٨٠ بدأت سلسلة من الانتفاضات والثورات قامت بها القبيلة ضد القرمانلي، وتوّجت بالاعتراف الرسمي لأولاد سليمان بحقوقهم، وهو ما مكن للقبيلة من استغلال

الكارثة الإقتصادية والاجتماعية التي ألمّت بعهد علي باشا القرمانلي، فسيطرت على الطريق التجاري إلى فزان عبر مصراته، وأحيانا قطعته. وحتى يسيطر بدوره من جديد على الدّواخل فإن يوسف باشا الذي ورث علي باشا، كان عليه أن يشنّ سلسلة من الحملات ضدّ أولاد سليمان وحلفائهم ما بين ١٨٠٥ و ١٨١٦. وبعد أن مُنيت هذه القبيلة بالهزيمة الماحقة تشتّت وبدا أنها هلكت تماما، غير أن أحد أحفاد الشيخ سيف النصر وهو عبد الجليل أخذ كرهينة في بلاط القرمانلي، فهيأت له مواهبه الحربية أن يتقلد قيادة غارات الباشا في تجارة العبيد داخل كانم عام ١٨٢٠. وفي عام ١٨٣١ وفي إحدى مظاهر انبعاث قوة القبيلة من جديد، تحوّل عبد الجليل إلى معاداة القرمانليين خلال الأعوام التي أخذت فيها قوّتهم السياسية والاقتصادية تتضاءل في أواخر عهد يوسف باشا الطويل، حتى أنه في نهاية تلك السنة استولى عبد الجليل على فزان وعيّن نفسه كسلطان مستقل في مرزق. ورغم أن أولاد سليمان اضطروا إلى التقهقر في الصحراء إلا أنهم مكثوا بشكل واسع في فزان. ومستفيدين من الخبرة التي اكتسبوها من الغزوات السابقة التي قاموا بها لصالح القرمانلي، فإنهم أخذوا يشنّون الغارات لصالحهم في كانم وبورنو، وفي نفس الوقت فقد القرمانليون سيطرتهم على فزان وطرق القوافل الجنوبية صوب بحيرة تشاد والطرق جنوب غربية نحو النيجر. فقد كان عبد الجليل قائداً عسكرياً محنكاً: " ينطلق من مبادئ ثابتة وانضباط صارم كان باستطاعته أن يستخلص النظام من الفوضى. ورغم معوّقات الحياة الصحراوية والنزعات الانقسامية التي يتّصف بها الرعاة، فإنه لم يتمكن فقط من تنظيم وتوحيد قوّاته العسكرية، بل إنه منحهم أيضا تدريبا ممتازا، وحافظ بينهم على مستوى عال من الانضباط " [١٩] ولفترة طويلة كان القنصل البريطاني وارنجتون معجبا بزعامة عبد الجليل سيف النصر حتى أنه عرض وساطته بين أولاد سليمان وبين يوسف باشا، ونظراً لوثوق العلاقة الشخصية بين القنصل وعبد الجليل سيف النصر، فقد رفض يوسف باشا هذه الوساطة ،كما أن زعماء القبيلة كانوا يتردّدون على بيت القنصل الريفي جنوب شرقي طرابلس. وفي تلك الأثناء بدا واضحا أن عبد الجليل كان على استعداد للعمل لكي تكون طرابلس محميّة بريطانية مقابل سيطرته على بقية أنحاء البلاد [٢٠] وبما أن يوسف باشا واجه الثورات المستمرة والإنهيار الاقتصادي، بفعل الكبح الدولي للقرصنة وعدم استتباب الأمن على طرق القوافل، فقد اضطر إلى أن يتنازل عن الحكم لإبنه على القره مالي في يوليو ١٨٣٢.

---

١٩ فولايان - طرابلس ص ١١٩.
٢٠ فولايان ص ١٢٠

وكانت البلاد في حالة فوضى والثورة عمّت طرابلس نفسها حين أرسلت الحكومة العثمانية في مارس ١٨٣٥ أسطولا حربيا لفرض حكم الآستانه المباشر على البلاد (بطلب من الأهالي، ومن القناصل الأوربيين) وبذلك أنهت ١٢٠ سنة من حكم دولة القرمانلي المستقلة.

وبعد سقوط الجزائر تحت الحكم الفرنسي عام ١٨٣٠، ونيل محمد علي ما يقارب الإستقلال لمصر، كانت دوافع تركيا وراء إعادة احتلال طرابلس هي الحيلولة دون ضياع مزيد من الممتلكات في شمال أفريقيا. ولكن الولاة العثمانيين - مثلهم مثل من سبقوهم من باشاوات القرمانلي - سرعان ما وجدوا القبائل مستعدّة للولاء لسلطان الآستانه، ولكنها غير راغبة في دفع الضرائب، أو الخضوع لسيطرتها. ولهذا استمرّت ثورات أولاد سليمان وغيرهم من القبائل خلال العام ١٨٣٠ حيث قويت شوكة أولاد سليمان، وأصبح عبد الجليل واقعيا الحاكم الفعلي لجميع فزان، وبذلك احتفظ بعلاقات مباشرة مع بورنو، واتصال دبلوماسي مع مصر محمد علي وفرنسا في الجزائر، الأمر الذي جعل العثمانيين يتوجّسون خوفا من تحويل طريق القوافل الصحراوي من طرابلس إلى منافذ أخرى في شمال أفريقيا. ووطّد عبد الجليل سيطرته على الصحراء الوسطى عن طريق التحالفات الزيجية مع الجيران: فهو شخصيا تزوج من أخت سلطان بورنو عام ١٨٣٥، وتزوجت اثنتان من أخواته بشخصيتين نافذتين في بورنو، بينما تزوّجت الأخرى من أحد أعيان التبو في منطقة تبستي [٢١] وفوق ذلك فإن عبد الجليل كان يُنظر إليه من قبل القنصل وارنجتون والحكومة البريطانية كعامل يعتدّ به للإلغاء الكلّي لتجارة الرقيق في الصحراء، وظاهرة الرّق في الصحراء الوسطى، وتنظيم التجارة المشروعة مع حثّ الحكام الآخرين على اتباع النهج نفسه. ففي اجتماع عُقد في سرت بينه وبين وارنغتون في أبريل ١٨٤٢، تعهّد عبد الجليل بتولّي هذه المهام شريطة أن يُمنح بعض المخارج إلى الساحل، وبالذات مرفأ بنغازي، والاعتراف به من قبل الباب العالي (كَبيْ) على فزان. غير أن كلّ هذه المشاريع التي كانت كفيلة بإعطاء بريطانيا ممرّات سياسية وتجارية إلى أقطار السودان الأوسط، عبر طرابلس أو بنغازي وفزان، لم تؤت أكلها.

وكما فعل الفرنسيون في الجزائر، تبنّى الأتراك في طرابلس في البداية تدخلاً ديناميكيا في سياسة الصحراء، بدلا من سياسة سلبيّة ودفاعيّة. فبعد إخماد الإنتفاضة في مصراته واحتلها من جديد عام ١٨٣٠ واجهوا ثلاث ثورات في ثلاثة مراكز رئيسية وهي: في ترهونه ومسلاته جنوب شرقي طرابلس؛ في الجبل الغربي؛ وكذلك في منطقة سرت

٢١ (أولاد سليمان) Cordell ص ٣٢٨

وفزان. وكان الأتراك سادة جدداً أكثر جبروتا من القرمانليين، ورغم أن الأساليب القاسية التي استعملوها ضد الثوّار لم تذلل العقبات أمام مهمته، إلا أن عبد الجليل دُوهم في مايو ١٨٤٢ بقوّة تركيّة في منطقة تابعة لورفلة - ما بين سرت وأبي نجيم - وذلك مباشرة عقب لقائه مع القنصل وارنغتون (تشتم هنا رائحة غدر وخيانة)، إذ ذكر إتوري روسّي: " في سنة ١٨٤٢ انتقل عبد الجليل إلى سرت، ويقال إن القنصل الإنجليزي استدعاه مقترحا عليه الإجتماع بإحدى المناطق الساحليّة متعهّدا بالعون الإنجليزي له والإعتراف بسيادته على فزّان، شريطة الكفّ عن تجارة الرّقيق. وعندما غادر عبد الجليل الإجتماع فوجيء بقوّة عسكريّة بقيادة حسن بك البلعزي تحاصره وتطوّقه بين سرت وأبي نجيم. وحين هُزم لجأ مع البقيّة الباقية من رجاله إلى مرتفع ما يزال يحمل إسمه حتى اليوم (قارة عبد الجليل). وظلّ يقاوم حتى النهاية. وقُتل في هذه المعركة كما قُتل أخوه سيف النصر وولدان لهذا الأخير، كما قُتل مصطفى الأدغم إبن آغا مصراتة، وأحمد المريّض شيخ ترهونة، وإبنه وأخوه. وكان ذلك في أوائل يونيو ١٨٤٢، وقُطع رأس عبد الجليل ونقله الجيش المنتصر إلى طرابلس. [٢٢] بينما هناك روايات متضاربة عن مقتل عبد الجليل ذكرها روسي وريتشاردسون وناختيجال فيما دونوه في كتبهم.[٢٣] وتقول إن القنصل وارنجتون هو الذي نصح محمدا بن عبد الجليل بأن يجلو مع قبيلة أولاد سليمان وحلفائها إلى بورنو وكانم، ليتفادوا الوقوع في قبضة الأتراك. وبتوغلهم مسافة ١٥٠٠ كم في عمق أفريقيا الوسطى، فإن أولاد سليمان وحلفاءهم وخاصة القذاذفة وورفله، وجدوا البيئة الصحراوية التي تماثل بيئتهم. ومن الناحية السياسية فإن موطنهم الجديد لم تختلف ظروفه كثيرا عما تركوه وراءهم، فبدلا من الأتراك العثمانيين وما وراءهم من ضغوط دبلوماسية واقتصادية أوروبية، كان عليهم أن يتباروا مع سلطة محتضرة في امبراطورية بورنو، وصعود خطر توسّعي هو خطر الواداي في الشرق. فالسكان البرناويّون والتبو المحليّون لا يصل مستواهم الى القوة العدوانية للعرب الليبيين والعرب البربر الوافدين، رغم أنهم نسبيا قليلو العدد، فأغلبهم فضّل البقاء في إقليم سرت مع التفاهم مع الأتراك. وقد قيل إن جماعات أولاد سليمان المختلفة في كانو، تجاوز عددهم ١٧٠ خيمة (أي نجع)، يضاف إليها ٣٠ نجعا من الحلفاء والتابعين القذاذفه وورفله. ويبدو أن تفوّق الليبيين كان يُعزى إلى امتلاكهم للأسلحة الناريّة. وبذلك لم تستطع أي مجموعة رعويّة قريبة أن تنافسهم. وأكثر جيرانهم رهبة كان تحالف (Kel Owi) من التوارق المتمركزين غربا في مرتفعات (الأير). وفي العام ١٨٤٤ استغل أولاد سليمان، مدعومين من قبائل أخرى، ما تدرّه

٢٢ (ليبيا منذ الفتح العربي..) ص ٣٦٥ واعتمد المؤلف في روايته على تقرير لقنصل سرينيا إلى وزارة خارجيّته، وعلى تقرير القنصل الفرنسي (بليسبير دي رينود) وشارل فيرود في حولياته، والذي قال فيها إن الزعماء المذكورين مع عبد الجليل لم يُقتلوا أثناء المعركة، ولكن أعدمهم أشقر باشا بعد شهر من ذلك..

23 355 Travels

الغزوات من غنائم، والتي كانت تُشنّ على القوافل السنوية الضخمة التي يطلق عليها (غزلية)، ولعلها تحريف لكلمة غزوة العربية، والتي كان ينظمها (الكيل أوي) لإمداد دويلات الهوسا بملح كاوار. وكانت قوة أولاد سليمان تتكون من آلاف الإبل، وكان أسلم لها لو أنها تفادت استفزاز الطوارق: إذ في بداية ١٨٥٠ فوجئ الغزاة الليبيون بقوّة مكوّنة من ٧٠٠٠ من (الكيل أوي) وحلفائهم في وادي (علاله)، وتعرّضوا فيه لمذبحة ماحقة لم ينج منها إلا الشبان الشجعان. وكان الشيخ محمد من بين القتلى، وخلفه في زعامة القبيلة غيث إبن سيف النصر البالغ من العمر ٢٢ سنة [٢٤] وقد زارهم الجغرافي الألماني المذكور بعد نكبتهم هذه، وأفرد فصلا كاملا لما أسماه (بعصابة اللصوص). وما أن حطّوا رحالهم في كانم عام ١٨٧٠ حتى التحق بهم عدد كبير من المغامرين من القبائل العربية جاءوا من البادية ومن فزان، وتحوّلوا إلى حلفاء بورنو على واداي كما ذكر الرحّالة الألماني (ناختيجال)، الذي شاهدهم آنذاك ووجدهم مسيطرين، قد أدخلوا الرّعب في روع السكان، ثمّ قاتلوا الفرنسيين عند إحتلالهم لكانم. وحسب بارت كان باستطاعة القبيلة أن تجنّد لميدان المعركة ما بين ٩٠٠ ــ ١٠٠٠ فارسا. وحتى تحافظ على وجودها استعانت بحلفاء من طوائف التبو المحليّة. وفي الواقع تولت الدفاع عن السلطنة التي عجز أهلها عن توفيره، كما تمرّست القبيلة بمهارة في ضرب قبيلة مستقرة أو رعوية بأخرى. واستطاع أولاد سليمان أن يمدّوا غزواتهم كيفما شاءوا إلى مناطق أبعد، متمتّعين بسلطة أكسبتهم مزيدا من حريّة العمل أكثر مما كانوا يتمتعون به في سرت [٢٥] وقد صوّر ناختيجال كيف كانت القبيلة تجنّد الأنصار من بين أقاربها قائلا عنها: " بتماسك عجيب وحذق ماهر قاتلوا ضد القبائل المنتشرة بين تشاد والحدود الجنوبية لتبستي من ناحية، وبين بورنو والطريق المؤدي من بنغازي إلى الواداي من ناحية أخرى. ولقد قاموا بذلك بقوة لا تتعدى ٥٠٠ فارسا، أو ما يعادلهم من المشاة، فهم ببسالة قتالية عنيدة تراهم، تارة يحاربون في موسم الحصاد في بوركو، وتارة ينضمّون إلى القبائل العديدة في بحر الغزال، وتارة أخرى أثناء ترحالهم للتسوّق في بورنو أو سلطنات الهوسا. وإن منحدرات (عجّي) و (بوديلي) الغنية بالنباتات والمياه الغزيرة،رغم ملوحتها، تعتبر المحطات المفضّلة للقبائل الممتطية للإبل القادمة من الصحراء الجنوب شرقية، والتي ازدادت تصحّراً. وإن ما استولى عليه هؤلاء القساة منذ وصولهم لا يمكن تعداده. وكانت الصحارى وشبه الصحاري تمدّهم بما يؤثرونه أي الإبل، كما أن السكان الحضر في السودان المجاور كانوا يزوّدونهم بما يغذّي جشعهم من كنوز نفيسة يزخر بها ذلك الإقليم من الفضة والعنبر واللؤلؤ والأقمشة القطنية. وكانت الروايات عن غزواتهم الناجحة، رغم ما تنطوي عليه من مبالغات بفعل بعد المسافة والتضخيم الخرافي، قد تسرّبت إلى مواطنهم الأصلية،

---

٢٤ بارت (Travels –Discovaries 275p.)

٢٥ كلوديل – ص ٣٣٢.

فجذبت إليهم مواطنيهم والمغامرين المتعطّشين للنهب من الحدود المصرية إلى طرابلس وفزان، ومن ورفله وقذاذفة وفرجان وجوازي ومقارحة. والذين انضمّوا لفترة ما إلى هذه المهنة، دون نفور من معاناة ووحشة الهجرة، ومن هموم الإنفصال عن الوطن والأسرة، إذ ظهروا في أقصى الجنوب كحلفاء مؤقتين يعودون بعد سنين قليلة محمّلين بالغنائم ".

وأحد مصادر القوة لدى أولاد سليمان يكمن في محافظتهم على ارتباطهم الوثيق مع أهلهم في ليبيا. فبينما يعود أعضاء القبيلة في المناسبات إلى أراضي سرت، تعمل أعداد أكثر منهم في ليبيا كمدد سواء بشكل مؤقت أو دائم، وفقا للنجاحات التي حققها أقرباؤهم في الجنوب.

وفي عام ١٨٦١ نزح عدد كبير من قبيلة المغاربة من مناطق رعي الإبل شمال شرقي اجدابيا إلى شمال كانم [٢٦] وهكذا تمكنوا - وإن ليس بسهولة - من العيش مع أولاد سليمان والقيام بالغزوات في تشاد [٢٧] وقد روى ناختيجال عام ١٨٧٢ أنه سمع عن فريق من الغزاة مكوّن من ٣٠٠ رجلا وصلوا من سرت إلى كانم، للإنضمام إلى حلفائهم من القبيلة هنا ". وهذا الأسلوب من القبائل الليبية المغيرة في اعتبار كانم وبوركو والأراضي المجاورة، كصيد ثمين تنبغي المحافظة عليه، إستمر حتى نهاية القرن تقريبا. وكما هو الحال في إقليم سرت فأولاد سليمان والمرتبطون بهم استطاعوا البقاء في تشاد عن طريق الغنائم المنهوبة والمغتصبة، وبواسطة المتاجرة والتنقل البشري في المناطق البيئية المتنوعة، ما بين الصحراء الجنوبية والسودان الشمالي والسيطرة المحكمة على المحطات المتباعدة عبر الطريق التجاري الرئيسي الموصّل بين طرابلس وبورنو. وتكمن قوّتهم في القدرة على شن الغارات على الرعاة والسكان المستقرّين بجسارة كبيرة. وكانت هذه الغارات تجلب لهم الغنائم، كما أن الرعب الذي بثوه، ضمن لهم الحصول على الجزية المنتظمة. وحتى الرعاة الآخرون مثل التوارق والتبو نشطوا في شن غاراتهم، إلا أن أولاد سليمان استخدموا الخيل والإبل والأسلحة النارية، كلها مجتمعة، مما بوّأهم التفوّق في حياة تشاد الوسطى. وكان تكتيكهم الذي اعتادوا عليه هو الإغارة على الهدف باستعمال الجمل مع مرافقة حصانين دون راكب. ويستخدم الحصان النشط وقت الهجمة الأخيرة، ومن ثم عند الهروب. وبذلك يستفيد الغزاة من قدرة التحمّل عند الجمل، ومن سرعة وقصر العمل الخاطف الذي يتم عن طريق الحصان، مع استعمال السلاح الناري ضد

---

٢٦ (كارديل) أولاد سليمان ص ٣٣٤

٢٧ زيلتنير ص ٢٤

أولئك الذين لا يملكون إلاّ الأسلحة البيضاء كالرمح والحربة والسيف والخنجر [٢٨] وبهذه الوسائل تمكن أولاد سليمان - رغم قلة عددهم إذ لم يستطيعوا تجنيد أكثر من ألف مقاتل في عملية واحدة - من السيطرة على كانم والطرق المتجهة شمالا لمدة خمسين سنة. وقد صار هذا الإغتصاب المنفلت تقليدا بين السكان والأراضي في أقصى الصحراء المعرّضة للغزوات.

أما بقيّة القبائل العربية النازحة فكانت تعيش في السهل التشادي لعدة قرون قبل مجيء أولاد سليمان. وقد بدأ وصولهم من السودان النيلي ومصر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وإن كانوا بأعداد كبيرة في القرن السابع عشر. ومن ثمّ توالت موجاتهم إلى بداية القرن العشرين. وكانوا ينقسمون إلى فريقين من النازحين: (الإبّالة) أي رعاة الإبل من السهل الشمالي، و(البقارة) أي رعاة المواشي والأبقار من المناطق الأكثر ريّا في الجنوب. ويتفرّعون جميعا إلى حوالي عشرين قبيلة رئيسية من الرعاة وشبه الرعاة والمستقرّين. ورغم أنهم كانوا أكثرتواجدا وتزاحما داخل حدود السلطنات: كانم، بورنو، باجرمي والواداي، واختلاطا مع بقيّة السكان الآخرين، إلا أنهم حافظوا دائما على انسجام ملفت للنظر ثقافي وسياسي بشكل خاص. لقد لعبوا دوراً بسيطاً في عمليّة بناء الدولة، بيد أنهم التصقوا بالممالك المحليّة حتى أنهم دفعوا الضرائب وقدّموا الرجال وقت الحروب. وفي حياتهم الإقتصادية تغلغلوا بين كافة فئات المجتمع التشادي، وحافظوا على روابط تجاريّة وثيقة مع البلدان الإسلامية المجاورة. ففي أواخر القرن التاسع عشر تغلغل المغاربة والزويّة من قبائل برقة الشرقية - ويسمّون خطأ في تشاد بالفزانيين - في أراضي السهل كتجار، ومكثوا هناك منذ ذلك الوقت. وكما يقول **Chapelle** : " لقد عبر العرب تشاد من الشرق إلى الغرب زاحفين بهدوء، وانتشروا كما الوشاح المرمي أو طريق الحليب، وسط نجوم الكواكب، وتواصلوا رعاة أو مستقرّين مع بقيّة الشعوب، والتي غالبا ما تفوّقوا عليها عددا، وشاركوها تماما في طريقة الحياة، والبحث عن مصادر العيش وتبادلوا معها القيم الماديّة والثقافيّة بشكل وطيد " [٢٩] ورغم أن العرب لم يمثلوا على الأرجح أكثر من ثلث السكان في المناطق التي تشكّل جمهورية تشاد الحالية " فإنهم يلعبون دوراً ثقافيا هاما نظرا إلى لغتهم والتعليم التقليدي للقرآن. وحتى مجيء الحقبة الاستعمارية، فاللغة العربية كانت هي اللغة الوحيدة المكتوبة في تشاد. لقد انتشرت كلغة دين للمسلمين من الأعراق الأخرى دون زوال اللغة الأم لأولئك المسلمين، إلاّ في القليل النادر. إن رعاة المواشي العرب وزوجاتهم يعتبرون زوّاراً إعتياديين لأسواق المناطق

---

٢٨ كارديل ص ٣٣٣

٢٩ جون رايت مرجع سابق ٧٢ - ٧٨

السهليّة، أين يبادلون منتجاتهم من القطعان واللبن والزبد مقابل المواد الغذائية والمنسوجات والسلع المصنّعة المتنوعه. وهكذا انتشرت لغتهم كلغة تجارة تحت تسمية محرّفة شعبيا تسمى (توركو).[٣٠] وبذلك فإن الناطقين بالعربية في تشاد ليسوا بالضرورة عرباً، ولو أن العربي يعتبر أن من كانت لغته الأصليّة عربية فهو في حكم العربي، وهناك تعريف آخر يزعم أن العربي هو من لديه وعي بأنه عربي[٣١].

ومن المعروف أن هجرة القبائل الليبية إلى أقاليم تشاد المتاخمة، لم تقتصر على أولاد سليمان - وإن كانوا هم السبّاقون - ولكن جاءت موجات من قبائل أخرى، خاصة منذ عام ١٨٦١ التي شهدت تدفق قبيلة المغاربة على نفس إقليم (كانم) الذي حطّ فيه أولاد سليمان. وبعد ذلك في العام ١٨٧٣ تبعتها جماعات من قبيلتي ورفله والقذاذفه، قُدّر عددها بـ ٣٠٠ نفرا. ولعل تمركز هذه القبائل في إقليم واحد، وهو كانم مع انتمائها الواحد وتجاورها للحماية، قد جعل منها كتلة قويّة في الإقليم، وأدّى إلى تودّد سلاطين المناطق المتناحرة إليها، مثلما قام به الشيخ محمد أمين الكانمي أو (أمينو) سلطان برنو - وهو من أصل فزّاني كما سبق القول - حين تحالف معها وأمدّها بالسلاح في وجه تقدم نفوذ خصمه سلطان واداي، الأمر الذي أشعرها بالحاجة إلى أقناع الأخير بالتسليم بنفوذها في كانم. وبذلك انصهرت مع بقيّة قبائل الإقليم من توارق وقرعان وغيرهم، إلى أن جاء الغزو الفرنسي اعتبارا من ١٨٩٩[٣٢].

ثم توالت الهجرات الليبية استجابة لدواعي الجهاد الذي رفعت رايته الحركة السنوسيّة ضد الغزو الفرنسي، كما سنرى والتي استمرت حتى سنة ١٩٣٠ وانضمّت إليها هذه المرّة جماعات من قبائل الزويّة والمجابرة والبركات والحسون، إضافة إلى المزيد من القبائل التي سبقتها.

---

٣٠ نفس المرجع ص ١٧١

٣١ MRodinson The Arabs ص. ٤٥

٣٢ العلاقات الليبية التشادية لسعيد عبد الرحمن الحنديري ص٢٣ - ٢٤ منشورات مركز الجهاد - طرابلس - ليبيا ١٩٨٢.